جامعة الشهيد حمة لخضر بالوادي
معهد العلوم الإسلامية
السنة أولى جذع مشترك علوم إسلامية

# محاضرات مقياس:

# السيرة النبوية

موجهة لطلبة السنة أولى جذع مشترك علوم إسلامية

أستاذ المقياس:
الدكتور الجباري عثماني

المحاضرة الأولى: مقياس: السيرة النبوية
الدكتور: الجباري عثماني السنة الأولى جذع مشترك علوم إسلامية

# السيرة النبوية ماهيتها ومصادرها

## 1- تعريف السيرة النبوية:

### أ- السيرة لغة:

السيرة: من مصدر سير، سَارَ تَسْيَارا ومَسِيرا، يقولون استار بسيرته: أي استن بها واقتدى وسلك طريقته ومشى على خطته. وتعني السيرة: السُّنة والطريقة والهيئة، والحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره.

### ب- السيرة اصطلاحًا:

والسيرة اصطلاحًا تعني قصة الحياة وتاريخها، يقال قرأت سيرة فلان: أي تاريخ حياته، والسيرة النبوية هي دراسة حياة النبي "صلى الله وعليه وسلم"، وأخبار أصحابه على الجملة، وبيان أخلاقه وصفاته وخصائصه ودلائل نبوته وأحوال عصره؛ أي تاريخ حياته صلى الله عليه وسلم ومجموع ما ورد لنا من وقائعها.

## 2- أهمية السيرة ومكانتها:

- السيرة النبوية هي السبيل إلى فهم شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم النبوية، من خلال حياته وظروفه التي عاش فيها، للتأكد من أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن مجرد عبقري سمت به عبقريته، ولكنه قبل ذلك رسول أيّده الله بوحي من عنده.

- تجعل السيرة النبوية بين يدي الإنسان صورة للمثل الأعلى في كل شأن من شؤون الحياة الفاضلة، يتمسك به ويحذو حذوه، فقد جعل الله تعالى الرسول محمدًا صلى الله عليه وسلم قدوة للإنسانية كلها، حيث قال سبحانه: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ [الأحزاب:21].

- السيرة النبوية تعين على فهم كتاب الله، فكثير من آيات القرآن الكريم إنما تفسرها وتجليها الأحداث التي مرت برسول الله صلى الله عليه وسلم ومواقفه منها.

- السيرة النبوية صورة مجسدة نيّرة لمجموع مبادئ الإسلام وأحكامه، فهي تكوّن لدى دارسها أكبر قدر من الثقافة والمعارف الإسلامية، سواء ما كان منها متعلقًا بالعقيدة أو الأحكام أو الأخلاق.

- السيرة النبوية نموذج حي عن طرائق التربية والتعليم، يستفيد منه المعلم والداعية المسلم. فقد كان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم معلمًا ناجحًا ومربيًا فاضلاً، لم يأل جهدًا في تلمس أجدى الطرق الصالحة في التربية والتعليم، خلال مختلف مراحل دعوته.

- من خلال السيرة نتعرّف على جيل الصحابة الفريد، الذي كان صدى للقرآن، وكان التطبيق العملي لحكم الله أمرًا ونهيًا.

## 3- مزايا السيرة النبوية:

تجمع السيرة النبوية عدة مزايا تجعل دراستها متعة روحية وعقلية وتاريخية، كما تجعل هذه الدراسة ضرورية لعلماء الشريعة والدعاة والمهتمين بالإصلاح الاجتماعي، وفي النقاط الآتية نجمل أبرز مزايا السيرة النبوية.

- أنها أصح سيرة لتاريخ نبي مرسل أو عظيم مصلح، فقد وصلت إلينا رسالته صلى الله عليه وسلم عن أصح الطرق العلمية وأقواها ثبوتا، مما لا يترك مجالا للشك في وقائعها البارزة وأحداثها الكبرى.

- إن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم واضحة كل الوضوح في جميع مراحلها وتفاصيلها، منذ زواج أبيه بأمه آمنة إلى وفاته صلى الله عليه وسلم؛ مما يجعل سيرته عليه الصلاة والسلام واضحة وضوح

الشمس، كما قال أحد النقاد الغربيين: إن محمدا(صلى الله عليه وسلم) هو الوحيد الذي وُلد على ضوء الشمس.

- أن سيرته صلى الله عليه وسلم واقعية تحكي سيرة إنسان أكرمه الله بالرسالة، فلم تخرجه عن إنسانيته، ولم تلحق حياته بالأساطير، ولم تضف عليه الألوهية قليلا ولا كثيرا؛ ولهذا ظلت سيرته المثل النموذجي الإنساني الكامل في نفسه وأسرته وبيئته.

- أنها سيرة شاملة لجميع النواحي الإنسانية في الإنسان؛ فهو كأب، وزوج، وقائد، ورئيس دولة، ومربّ وصديق، وداعية، وسياسي؛ يجعله قدوة صالحة لكل هؤلاء.

- أن سيرته صلى الله عليه وسلم تعطي الدليل الذي لا ريب فيه، عن صدق نبوته ورسالته؛ لأنها سيرة إنسان سار بدعوته من نصر إلى نصر، ودعا الناس إلى ربه في تأدب ورفقة وخشية ورأفة ورحمة دون خوارق ومعجزات وآيات، يقول تعالى: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه، قل إنما الآيات عند الله، وإنما أنا نذير مبين﴾[العنكبوت: 50].

**4- مراحل كتابة السيرة النبوية:**

أ- **المرحلة الشفوية**: وهي المرحلة التي كان المسلمون في القرن الأول يتناقلونها أثناء الحديث عن سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، ويتحدثون عنها في المنابر والاجتماعات العامة والخاصة. وقد كانت المغازي النبوية محطّ عناية المسلمين بتعليمها لصغارهم، فعن أحدهم قال: كنا نُعلَّم مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نعلَّم السورة من القرآن.

ب- **مرحلة التدوين الجزئي**: قام بها بعض التابعين، فدوّنوا جوانب من السيرة والمغازي وحياة الرسول عليه الصلاة والسلام، بحيث كل طرف اهتم بالواقعة أو الحادثة التي شارك فيها والده أو قريبه، فهذا اهتم بغزوة بدر وأحد، وآخر اهتم بأحداث الهجرة، وغيرها، وهكذا تألّف من مجموعة هذه الأخبار والروايات ما يُعرف بكتب السيرة الأصلية في القرن الأول وبداية الثاني.

ت- **مرحلة التأليف والتصنيف**: وهي مرحلة التأليف والتصنيف عند تابعي التابعين؛ ممن تخصّص في هذا العلم وبرع فيه وألّف مصنفات كثيرة، استوعبت تفاصيل دقيقة عن حياة نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام وسيد البشر في جميع أطوار حياته.

**5- مصادر السيرة النبوية:**

إن مصادر السيرة النبوية التي اعتمدها سائر الكتاب على اختلاف طبقاتهم محصورة في المصادر الآتية:

**أ- القرآن الكريم:**

إن أوثق وأصدق وأصح ما كُتب في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، هو ما أقتبس من القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من عزيز حميد، وهو الذي لم يشك في صحته العدو اللدود قبل الصديق الودود، والقرآن يقصّ علينا جميع مناحي السيرة النبوية، وطرفا من حياته عليه الصلاة والسلام قبل النبوة، فيذكر لنا يتمه وفقره﴿ألم يجدك يتيما فآوى، ووجدك ضالا فهدى﴾[الضحى: 5-6]، وتحنثه(تعبده)، كما يذكر لنا شؤونه بعد النبوة من هبوط الوحي عليه، وتبليغه إياه، والعروج به، وعداوة الأعداء، وهجرته، وغزواته. وفي القرآن الكريم ذكر أخلاقه عليه الصلاة والسلام: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[القلم: 4]. كل ذلك تراه مذكورا في القرآن ببيان واضح، وأسلوب متين رائق.

**ب- السنة النبوية الصحيحة:**

المصدر الثاني من مصادر السيرة، كتب الحديث، وهي كتب روت لنا من أقوال النبي عليه الصلاة والسلام، وأفعاله، وأحواله. ومن تلك المصنفات الكتب الستة: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، والترمذي، وابن ماجة. ويضاف إليها موطأ الإمام مالك، ومسند الإمام أحمد. ويأتي البخاري ومسلم في الذروة العليا من الصحة والثقة والتحقيق. وقد خصصت كتب الحديث أقساما وأبوابا لجهاده، ومغازيه،

وجوانب كثيرة من سيرته وحياته عليه الصلاة والسلام، غير أن مادتها غير مرتبة حسب التتابع الزمني للأحداث؛ لأن عناية هذه الكتب تنصرف إلى أقواله وأفعاله من حيث أنها مصدر تشريع، لا من حيث هي تاريخ مدوّن.

ت- **كتب المغازي والسير**:

لقد سميت الدراسات الأولى لحياة الرسول عليه الصلاة والسلام باسم "المغازي"، وتعني لغويا غزوات الرسول عليه الصلاة والسلام وحروبه؛ ولكنها في الحقيقة تناولت عصر الرسالة بكامله. ولقد استعملت لفظة "السيرة"؛ للتدليل على حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان محمد بن شهاب الزّهري أول من استعمل هذا اللفظ ثم تلاه ابن إسحاق وابن هشام، كما أن لفظة المغازي تستعمل عموما كمرادف للفظة السيرة. وتأتي هذه الكتب من حيث الدقة بعد القرآن الكريم، وكتب الحديث الشريف. ومما يعطيها قيمة علمية كبيرة، أن أوائلها كتبت في وقت مبكر جدا في جيل التابعين، حيث كان جيل الصحابة موجودين ولم ينكروا عليهم ذلك.

ومن أبرز الذين اشتهروا بهذا العلم من الطبقة الأولى نجد: "أبَان بن عثمان بن عفان" رضي الله عنه(ت بين 95-105ه/713-723م)، مدني، ومحدث له ميل إلى دراسة المغازي، والظاهر أن سيرته التي جمعت لم تكن إلا صحفا فيها أحاديث عن حياة نبي الله عليه الصلاة والسلام، وأيامه. و"عروة بن الزبير بن العوام" وهو مدني(ت94/712م) وهو فقيه ومحدّث مشهور، يعتبر مؤسس دراسة المغازي، ألف كتابا في المغازي تناول فيه جوانب مختلفة من حياة النبي عليه الصلاة والسلام، ومن معاصري عروة "شرْحبيل بن سعد" وهو مدني(ت 123ه/740م). ووهب بن منبه، وهو يمني (ت110ه/728م).

ومن الجيل الثاني قام ثلاثة من العلماء بتنمية دراسة المغازي وتوسيعها وهم: الإمام "محمد بن مسلم بن شهاب الزهري"، وهو مكي (ت124ه/741)، أوّل من دوّن في السيرة، وهي أول سيرة أُلّفت في الإسلام، وسيرته من أوثق السير وأصحها، ويعتمد عليه ابن إسحاق كثيرا. وعبد الله بن أبي بكر بن حزم، وهو مدني(ت130-135/747-752م)، وعاصم بن عمر بن قُتادة، وهو مدني (ت124ه/741م).

ومن الجيل الثالث(تابعي التابعين)، من رجال مدرسة التاريخ المدنية التي ركّزها الزهري والمعروفة بـ "مدرسة المغازي"، نجد مُؤرّخين لهما أهمية خاصة، وكلاهما من تلاميذ الزهري، هما موسى بن عقبة الأسدي، وهو مدني (ت141ه/758م)، ومحمد بن إسحاق المُطّلبي، مدني (ت151ه/768م) إمام في المغازي، ومن هذا الأخير انتقلنا إلى علماء هم مؤرخون أولا، ثم محدثون من الدرجة الثانية، ألّف كتاب "السير والمغازي"، يتألف من ثلاثة أقسام: المبتدأ، والمبعث، والمغازي. ومن رواة السيرة عن ابن إسحاق "زياد بن عبد الله البكائي"(ت182ه)، وأصل سيرة ابن إسحاق مفقود، ولم يعثر إلا على قطع قليلة. وهناك محمد بن عمر الواقدي(ت207ه/823م)، فكتابه المغازي أو غزوات الرسول عليه الصلاة والسلام وسراياه يقتصر على الفترة المدنية. وجاء من تلاميذ الواقدي "محمد بن سعد"(ت230/844م) فألف كتاب "الطبقات الكبرى"، يتألف من عدة أجزاء أفرد منها الجزأين الأولين لسيرة النبي ومغازيه وغيرهم كثير.

وأفضل كتاب أُلّف في السيرة، ونال رضا جمهور العلماء، هو لـ "عبد الملك بن هشام الحِميري المَعافِري"(ت213 أو 218ه)، والمعروف بسيرة ابن هشام، وهو تهذيب واختصار لسيرة ابن إسحاق تلقاها عن البكائي، فليس من مؤلف بعده إلا كان عيالا عليه؛ مما يعطي سيرته توثيقا كبيرا.

ث- **كتب الشمائل**:

الشمائل، جمع الشِّمال؛ وهي الطبائع والخلق، وهي الكتب التي قصد أصحابها التركيز على ذكر الصفات الخَلقية والخُلقية للنبي صلوات الله وسلامه عليه، وعاداته، وفضائله، وسلوكه القويم في الليل والنهار. وأهمها كتاب "الشمائل" للإمام محمد بن عيسى الترمذي (ت279ه). ومن ذلك كتاب "أخلاق النبي وآدابه" لعبد الله بن محمد الأصبهاني المعروف بأبي الشيخ (ت369ه)، وكتاب "الأنوار في شمائل النبي المختار" للحسين بن مسعود البغوي (ت516ه) وغيرهم.

ج- **كتب الدلائل:**

جمع دِلالة بالفتح والكسر، وهي الكتب التي ألفها أصحابها بقصد جمع المعجزات التي ظهرت على النبي عليه الصلاة والسلام الدالة على نبوته، اشتملت كتب الحديث على أبواب في علامات النبوة ودلائلها، لكن أقدم من أفردها "محمد بن يوسف الفرياني"(ت212ه) في كتابه "دلائل النبوة"، ثم على بن محمد المدائني(ت225ه) في كتابه "آيات النبي"، و"داود بن علي الأصبهاني"(ت270ه) في كتابه "أعلام النبوة"، وأحمد بن الحسين البيهقي (ت458ه) في كتابه "دلائل النبوة" وغيرهم كثير.

**ح- كتب التاريخ العام:**

وهي التي تُعنى بالتأريخ للأمم والدول بشكل عام قبل الإسلام وبعده، خصّصت جزءً مهما من مؤلفاتها لدراسة سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وفي مقدمتها يأتي تاريخ الإمام "أبي جعفر الطبري"(ت310ه) "تاريخ الأمم والرسل والملوك". وكتاب "فتوح البلدان" لأحمد بن يحي البلاذري (ت279ه)، و"تاريخ اليعقوبي" لأحمد بن جعفر (ت292ه)، ومن المؤرخين القدامى كذلك "علي بن الحسين المسعودي" (ت346ه) ألف كتابا سماه "مروج الذهب ومعادن الجوهر". والعلامة "علي بن محمد بن الأثير" (ت630ه) ومؤلفه "الكامل".

**خ- كتب تاريخ المدن:**

وهي الكتب التي اهتمت بتاريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة قبل الإسلام وبعده. وأقدم ما ذكر في هذا الباب كتاب "تاريخ مكة" لمحمد بن عبد الله الأزرقي(ت250ه)، و"تاريخ مكة" للفاكهي، محمد بن إسحاق(ت280ه)، و"الدرة الثمينة في أخبار المدينة" لابن النجّار (ت642ه)، و"تاريخ المدينة" لمحمد بن الحسن المخزومي، توفي قبل المائتين للهجرة. وهناك من كتب في تاريخ المديتين، ومن أولئك "أبو عبد الله الزبير بن بكار"(ت256ه) له كتابا سماه "أخبار المدينة" وآخر "أخبار مكة" وغير هؤلاء كثير.

وهناك مصادر أخرى تكميلية تكمل معالم الصورة وتملأ الثغرات، ككتب الأدب واللغة، فهي تلقي الضوء على الحياة الثقافية ومستوى المعيشة وأنواع الملابس والأطعمة والعادات وغير ذلك من جوانب الحياة في عصر السيرة. وكذا كتب الجغرافية التاريخية التي تدرس تضاريس الجزيرة العربية؛ التي دارت فيها أحداث السيرة النبوية، وتبين مستوى المعيشة وحاصلاتها الزراعية، وتحدد المسافات بين الأماكن، وتوزيع العشائر.

المحاضرة الثانية: مقياس: السيرة النبوية
الدكتور: الجباري عثماني السنة الأولى جذع مشترك علوم إسلامية

## الجزيرة العربية قبل الإسلام المجال والسكان

لما كانت بلاد العرب مهد الدين الإسلامي ومنبع الدولة الإسلامية، وجب أن نعرف شيئا عن وصفها الجغرافي، وعن شعوبها، وحالتها السياسية والاجتماعية والدينية قبل ظهور الإسلام.

### 1- جغرافيا الجزيرة العربية:

كلمة العرب تنبئ عن الصحاري والقفار، والأرض المجدبة التي لا ماء فيها ولا نبات. وقد أُطلق هذا اللفظ منذ أقدم العصور على جزيرة العرب، كما أُطلق على قوم قطنوا تلك الأرض، واتخذوها موطنا لهم. وأما عن موقعها فهي تقع في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا، وهي أكبر جزيرة في العالم، ويبلغ متوسط عرضها سبعمائة ميل، ومنتهى طولها ألف ومائة ميل، ومساحتها حوالي ألف ألف ميل مربع. يحيط بها الماء من ثلاث جهات؛ لذلك أطلق العرب على بلادهم اسم جزيرة العرب، بحيث يحدّها البحر الأحمر غربا، وشرقا الخليج العربي(الخليج الفارسي)، وجنوبا بحر العرب(المحيط الهندي)، وشمالا بلاد الشام، والبعض يذكر أنها تمتد شمالا إلى البحر الأبيض المتوسط.

وتحتل جزيرة العرب موقعا طبيعيا وجغرافيا هاما، إذ أنها تربط بين قارات ثلاث: آسيا، وإفريقيا، وأوروبا. وأما من الناحية الحضارية للعالم قبل الإسلام فهي تربط بين الحضارتين السائدتين حينئذ: الحضارة الرومانية، والحضارة الفارسية.

ويقسم جغرافيو العرب الجزيرة العربية بحسب طبيعتها خمسة أجزاء:

أ- **تِهامة**: وهي الأرض الواطئة الممتدة بمحاذاة ساحل البحر الأحمر من ينبع إلى نجران في اليمن، وسُميت بهذا الاسم لشدة حرّها وركود ريحها؛ من التهم وهو شدة الريح وركوده. وتسمى الغوْر أيضا؛ لانخفاض أرضها عن أرض نجد.

ب- **الحجاز**: ويقع شمالي اليمن وشرقي تهامة، ويتكون من عدة أودية تتخلل سلسلة جبال السَّرَاة وفيه المدينتان المقدستان: مكة والمدينة.

ت- **نجد**: وهو الجزء المرتفع الذي يمتد بين اليمن جنوبا وبادية السماوة شمالا، ويسير شرقا إلى صحراء البحرين، وسمي نجدا لارتفاع أرضه، فيه صحراوات وجبال.

ث- **العَروض**: وهي تتصل بالبحرين شرقا، وبالحجاز غربا، ويشمل اليمامة وعمان والبحرين، وسُمي عروضا؛ لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق.

ج- **اليمن**: ويمتد من نجد إلى المحيط الهندي جنوبا والبحر الأحمر غربا، ويتصل به من الشرق حضر موت والشحر وعمان.

### 2- أقوام العرب:

الجنس الذي يسكن شبه الجزيرة يسمى الجنس العربي، وهو أحد الأجناس الساميّة، ويتكلم اللغة العربية، إحدى اللغات السامية، ولكنها أكثر محافظة على خصائص اللسان السامي، ويرجع ذلك لطبيعة الحياة الانعزالية لسكان الجزيرة، بالمحافظة على الأنساب والأحساب. وأما أقوام العرب فقد قسمها المؤرخون إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التي ينحدرون منها:

أ- **العرب البائدة**: وهم الذين بادوا ودرست آثارهم وانقطعت أخبارهم ومن أشهر قبائلهم: عاد، وثمود، وطَسْم، وجَديس، وأَمَيْم، وجُرهم الأولى، والعمالقة وغيرها. وهذه القبائل اضمحلت من الوجود قبل الإسلام، وكان لهم ملوك امتد ملكهم إلى الشام ومصر.

ب- **العرب العاربة(القحطانية)**: وهم العرب المنحدرة من صلب يَعرب بن يشجب بن قُحطان، وتسمى بالعرب القحطانية، ويُعرفون بعرب الجنوب، يسكنون اليمن وما حواليها. ومنهم ملوك اليمن،

وملوك مَعين، وسبأ وحِمير. ومن أشهر قبائلهم: جرهم، ويعرب. ومن يعرب تشعبت القبائل والبطون من فرعين كبيرين وهما: كهلان وحمير.

ت- **العرب المستعربة(العدنانية)**: نسبة إلى عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، ويقال لهم بالعرب المتعربة، سموا بذلك؛ لأن إسماعيل كان يتكلم العبرانية أو السريانية، ولما نزلت جرهم القحطانية بمكة وسكنوا مع إسماعيل وأمه، تزوج منهم وتعلم هو وأبناؤه العربية؛ فسمّوا بالعرب المستعربة، وهؤلاء هم عرب الشمال، موطنهم الأصلي مكة. ومن أهم ذرية إسماعيل(عدنان) جدّ النبي صلى الله عليه وسلم الأعلى، ومن عدنان كانت قبائل العرب وبطونها.

3- **ممالك وحضارات العرب قبل الإسلام**:

أ- **ممالك وحضارة اليمن**: لقد قامت ممالك وحضارات قديمة في الجزيرة العربية، فنشأت في الجنوب(اليمن) مملكة مَعين، وحضر موت، وقتبان، وسبأ، وحِمير، وأعظم هذه الممالك نذكر:

أ-1- **مملكة سبأ(السبئيون)**: امتد نفوذها حول سنة 950 إلى 115 ق. م، وورثت سبأ ملك مَعين حوالي سنة 630 ق. م. ولقبوا بألقاب "ملوك"، وأصبحت عاصمتهم مدينة "مأرب" التي تقع على بعد 100كم إلى الشرق من صنعاء. وقد بُدِئَ ببناء سد مأرب في عهدها الأول(630-950 ق. م) ولم تزل الإضافات تترى عليه في عهد الملوك حتى اكتمل حوالي عام 300 م في عهد الحميريين. وأشهر وأعظم ملوك سبأ "بلقيس"؛ وقد قصّ القرآن قصتها مع سليمان عليه السلام.

أ-2- **مملكة حِمير:** مرت الدولة بفترتين من حياتها، أولاها: عُرفت بالدولة الحميرية الأولى، وامتد نفوذها من حوالي سنة 115 ق. م إلى سنة 300م، وقد غلبت قبيلة حِمير واستقلت بمملكة سبأ، وملوكها اتخذوا ظفار(ريدان) عاصمة لهم. ونظرا لغلبة الروم على طريق التجارة البحرية، وبسط الأنباط سيطرتهم على الحجاز، وتنافس القبائل فيما بينهم، أصابهم الهوان، وتسبب كل ذلك في تفرقهم وهجرتهم الشاسعة؛ لتدخل المملكة في المرحلة الثانية من عمرها، وهو ما عُرف بالدولة الحميرية الثانية منذ سنة 300م إلى دخول الإسلام اليمن، وقد توالت الاضطرابات في الدولة، ففي هذا العهد دخل الرومان عدن، وبمعونتهم احتلت الأحباش اليمن لأول مرة سنة 340م واستمر احتلالهم إلى سنة 378م، ثم نالت اليمن استقلالها. وفي منتصف القرن الخامس ميلادي، بدأت تظهر الثلمات في سد مأرب، حتى وقع السيل العظيم الذي ذكره القرآن بسيل العرم في سنة 450 أو 451م، وكانت حادثة كبرى أدت إلى خراب العمران وتشتت الشعوب.

وبعد حادثة الأخدود المحزنة التي وقعت في سنة 523م، التي ارتكبها "ذو نواس اليهودي" ضد سكان نجران، استنصر أهل نجران بقيصر الروم، الذي ناب عنه النجاشي الحبشي بقيادة حملة على الحميريين التي انتهت بتبعية اليمن للحبشة. وقد حاول "أبرهة الأشرم الحبشي"(صاحب الفيل، وأحد قادة الأحباش باليمن) هدم الكعبة، لكن الله ردّ كيده ونكّل بجيشه، قال تعالى في سورة الفيل: ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول**﴾[سورة الفيل]. لتدخل اليمن في الحكم الفارسي بعد أن استنجد بهم أهلها، وآخر حاكم فارسي باليمن هو "باذان" الذي دخل الإسلام فيما بعد.

ب- **مملكتي الحيرة وغسان**: استوطن بعض القبائل العربية الأراضي القريبة من حدود الدولتين الرومانية والفارسية وتمتعت باستقلال محدود، وقد استعان الفرس والروم بهذه القبائل على أغراضهم السياسية؛ التي ترمي إلى الوقوف في وجه القبائل العربية الأخرى التي تغير على بلادهم، وقد اتخذ الفرس إمارة الحيرة؛ للاستعانة بها على حرب الروم، كما اتخذ الروم أمراء غسان أعوانا لهم على الفرس، ووسيلة لحكم قبائل العرب القريبة منهم.

ويعود أصل المناذرة ملوك الحيرة إلى عرب الجنوب اليمنية، وتقع إمارتهم(الحيرة) على بعد ثلاثة أميال من الكوفة على بحيرة النجف بالعراق، وتاريخ إمارتها يرجع إلى القرن الثالث الميلادي، واستمر إلى ظهور الإسلام. وقد كان لأهلها أثر كبير في ازدهار الحضارة العربية، اشتغلوا بالتجارة وتعلموا القراءة والكتابة؛ وبذلك أصبحوا واسطة في نشر المعارف بالجزيرة. وأشهر ملوكهم: "النعمان بن امرؤ

القيس"(418-400م) باني "الخورنق"، وكان الذي شيّده رجل اسمه سنمار، فلما فرغ من بنائه تعجبوا من حسنه وإتقان عمله؛ وخوفا من أن يبنيَ أحسن منه، أمر به النعمان وطُرح من رأس الخورنق. وقد صار ما صنعه النعمان بسنمار سير الأمثال حتى قيل: " جزاء سنمار".

وأما عن الغساسنة فهم أيضا من اليمن وينتسبون إلى قبيلة الأزْد، وعندما خرجوا من ديارهم نزلوا على ماء في سهل تهامة يسمى "غسان"؛ فنسبوا إليه. وسكنوا مشارف الشام وأنشأوا لأنفسهم دولة تحت رعاية الروم، فتحضروا بتوالي الأجيال وعمروا المدن، وشادوا القصور والقلاع، وكانت عاصمتهم بصرى في حوران. وقد تولى دولة الغساسنة عدة حكام أعظمهم شأنا كان "الحارث بن جبلة الأعرج"(569-528م)، وبقيت هذه الدولة قائمة إلى ظهور الإسلام، وآخر ملوكهم "جبلة بن الأيهم.

ت- **الحكم بالحجاز**: حافظ الحجاز عل استقلاله منذ أقدم العصور، الأمر الذي أكسب سكانه طبائع خاصة، من حيث عراقة الأصل والشرف والشهامة. وقد عاش زمناً في ظِل حكم إسماعيل عليه السلام وأحفاده، إلى أن استولت جرهم على الحكم بمكة وانتزعته من يد أبناء إسماعيل عليه السلام، وبقي الحكم في جرهم إلى أن جارت وظلمت واستحلت المحرَّم في مكة. ولما نزلت قبيلة "خزاعة" اليمنية مكة، ورأت نفور العدنانيين من الجراهمة حاربتهم بمساعدة العدنانيين؛ فأجلوهم عن مكة وهم يبكون فالتحقوا باليمن ديارهم الأولى.

وقد استأثرت خزاعة بحكم مكة في أواسط القرن الثاني للميلاد، واستمرت ولايتها بمكة زهاء ثلاثمائة سنة، حتى جاء "قصي بن كلاب القرشي"(الجد الرابع لرسول عليه الصلاة والسلام)، واستولى على أمر مكة والبيت في أواسط القرن الخامس للميلاد سنة 440م؛ وبذلك صارت لقصي ثم لقريش السيادة التامة على مكة، ومن ثم عظم نفوذه واجتمعت له: السقاية والحجابة والرفادة، واللواء، ورئاسة دار الندوة، ولم تجتمع في رجل قبله. وأصبحت بذلك حكومة الحجاز محط احترام وإجلال من باقي العرب؛ لتبوئها الزعامة الدينية والدنيوية، حيث تجتمع إليها القبائل للحج والتجارة، وما زال فضل قريش يزداد حتى جاء عهد عبد المطلب، الذي اشتهر بتجديد حفر بئر زمزم سنة 540م، وفي عهده خذل الله أبره الأشرم وصدّه عن مكة والبيت الحرام كما أسلف.

**4- ديانات العرب قبل الإسلام:**

كان معظم العرب يدينون بدين إبراهيم عليه السلام على الحنفية السمحاء، منذ نشأت ذريته في مكة وانتشرت في جزيرة العرب، حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظّا مما ذكروا به، حتى جاء "عمرو بن لُحيّ الخزاعي" رئيس خزاعة، الذي زار الشام لطلب الشفاء لسقم أصابه فبرئ منه، فرأى العماليق بالشام يعبدون الأصنام، فاستحسن ذلك وظنه حقا؛ فاستوهبهم واحدا منه وجاء به إلى مكة، فنصّبه في الكعبة وهو هُبل، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه؛ وانتشرت بسبب ذلك عبادة الأصنام والأوثان في العرب، وصارت فيهم بعد أن كانت في قوم نوح. ورغم غيّهم وضلالهم بقيت فيهم من عهد إبراهيم بقايا يتمسكون بها: من تعظيم الكعبة، والحج والعمرة، والوقوف بعرفة..

وكان إلى جانب الوثنية في بلاد العرب نحل وديانات أخرى، منها الصابئة ويعبد أصحابها النجوم والكواكب، وقد انتشرت في بلاد اليمن وحران وأعالي العراق. وعرفت العرب المجوسية والزندقة وعبدة النار. وانتشرت اليهودية عند العرب قبل الإسلام واعتنقها البعض، حيث أقامت قبائل في اليمن، وكان لهم تجمع ضخم في يثرب وهم: بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع، الذين نزحوا من فلسطين بعد هجرتهم بضغط من الرومان في أواخر القرن الأول الميلادي. وكما كان للمسيحية انتشارا وحضورا في الشمال وبلاد اليمن في الجنوب، وقد دخلت بفضل جهود أباطرة الدولة الرومانية الشرقية في القرن الرابع الميلادي؛ إلا أنها لم تجذب إليها أنصارا كثيرين منهم، ومن أهم مواطن النصرانية في بلاد العرب نجران أصحاب الأخدود. على أنه لم يقدر لأي دين من هذه الأديان الفوز والغلبة في بلاد العرب، مع ذلك مهدت الطريق لظهور المصلح المنتظر وهو النبي عليه الصلاة والسلام.

**5- الحياة الاجتماعية:**

كان سكان الجزيرة العربية ينقسمون إلى بدو، وحضر، وكان النظام السائد بينهم هو النظام القبلي، حتى في الممالك المتحضرة التي نشأت بالجزيرة، فلم تنصهر الجماعة فيها في شعب واحد. وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي ينظم العلاقات بين الفرد والجماعة، على أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت تتمسك به القبيلة في نظامها السياسي والاجتماعي. وزعيم القبيلة ترشحه للقيادة منزلته القبلية وصفاته، وخصائصه من شجاعته ومروءة وكرم ونحوها.

وأما عن وضع المرأة في المجتمع العربي، فكانت كَسَقط المتاع، إذ كانوا يجمعون بين الأختين في الزواج، ولم يكن للعرب حدٌّ محدود في للنكاح، ومنهم من له العشر من النساء. وقد بيّنت عائشة رضي الله عنها أنواع الأنكحة الفاسدة في الجاهلية(نكاح الاستبضاع، ونكاح التواطؤ، ونكاح البغايا)؛ وجلّها يدخل ضمن دائرة الزنا السائد في أوساط المجتمع العربي آنذاك. كما كانت علاقة الرجل مع أولاده على أنواع شتى، فمنهم من كان يئد البنات خشية العار والإنفاق، ويقتل الأولاد خشية الفقر والإملاق.

ويمكن القول، أن الحالة الاجتماعية كانت في الحضيض من الضعف والعماية، الناس يعيشون كالأنعام، والمرأة تباع وتشترى وتعامل كالجمادات أحياناً، وما كان من الحكومات فجُلُّ هِمتها ملء الخزائن من رعيتها أو جر الحروب على مناوئيها. ومن هذا الظلام الدامس والجهل الجارف؛ يضيء مصباح الدجى، والمؤيد بوحي السماء؛ ليكون ميلاده رحمة للعالمين.

# محمد صلى الله وعليه وسلم من المولد إلى المبعث

## 1- نسب محمد صلى الله عليه وسلم:

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب – ويدعى شيبة - بن هاشم بن عبد مناف بن قُصي بن كلاب بن مُرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهر – وهو الملقب بقريش وإليه تنتسب القبيلة- بن مالك بن النَّضْر بن كِنانة بن خُزيمة بن مُدركة بن إلياس بن مُضَرَ بن نزار بن مَعَدِّ بن عدنان. هذا هو الصحيح المجمع والمتفق عليه في نسبه صلى الله عليه وسلم، وما فوق ذلك مختلف فيه، ويبلغ عدد الآباء في هذا السياق واحدا وعشرين أباً.

ولا خلاف أن عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وإنما الخلاف في عدد من بين عدنان وإسماعيل من الآباء، فمقلّ ومكثر، وكذلك من إبراهيم إلى آدم عليهما السلام. وقد كان عبد الله أبو رسول الله أصغر ولد أبيه، وهو والزبير وعبد مناف(أبو طالب)، بنو عبد المطلب لأم واحدة، وأمهم جميعا فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم.

تدعى أسرته صلى الله عليه وسلم بالهاشمية؛ نسبة إلى جده الثاني هاشم بن عبد مناف، كان هاشم موسرا وذا شرف في قومه وفضل، كانت قريش تُسميه الفيض لسماحته وفضله، تولى خدمة السقاية والرفادة لزوار بيت الله، وهو أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة، وأول من سنّ الرحلتين لقريش، رحلة الشتاء، ورحلة الصيف، وقد مات بغزة من أرض فلسطين تاجرا.

وولِي عبد المطلب السقاية والرفادة بعد عمه المطّلب، وقد لقي بهذين المنصبين شيئا من المشقة، بحيث لم يكن له من الأبناء إلا الحارث، وكانت سقاية الحاج يؤتى بها منذ نضبت زمزم من آبار عدة مبعثرة حول الكعبة. وبينما هو على هذا رأى رُأيا كانت سبب الفرج بعد الكرب؛ حين أُمر بحفرها(زمزم) عندما كان نائما في الحجر، فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث، فحفر البئر وأخرج منه الغزالين من الذهب اللذان دفنتهما جرهم فيه حين خرجت من مكة؛ وعادت زمزم كما كانت عينا ثرّة يشرب منها الحجيج، وكان عبد المطلب يشتري الزبيب فينبذه بماء زمزم، ويسقي أضياف الله، لذلك لُقِّب بالفياض؛ لجوده، وشيبة الحمد، لكثرة حمد الناس إياه.

ولما طالبته قريش بالمشاركة في بئر زمزم، ووجد عنة في مقاومتهم لعدم كثرة الولد لديه، فنذر لله إن رزقه الله عشرة من الولد، وبلغوا أن يحموه، أن يذبح أحدهم لله. فرزق عشرة من الأبناء وأراد أن يفي بنذره، فضرب القداح عند صنم هبل، وكان في جوف الكعبة، فخرج السهم على عبد الله أعز أبنائه، فأراد ذبحه لكن قريش منعته، وأشاروا عليه أن يستفتي كاهنة معروفة بخيبر، فذكرت له أن يقرّب عشرا من الإبل، ويضربوا عليه وعليها القداح، فكان السهم كل مرة يخرج على عبد الله حتى بلغ عدد الإبل مائة، فخرج السهم على الإبل فذبحوها؛ وعليه لُقّب المصطفى صلى الله عليه وسلم بـ "ابن الذبيحين".

## 2- زواج عبد الله بآمنة:

كان عبد الله شابا، نسيبا، جميلا، وسيما، قوي البنيان، غاية الأماني، من الغيد الكواعب الحسان؛ أحسن من رُؤي في قريش، خرج يوما على نساء من قريش مجتمعات، فقالت امرأة منهن: يا نساء قريش، أيتكن تتزوج هذا الفتى فتصطاد النور الذي بين عينيه، فتزوجته آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة من بني زُهرة، بعد أن خطبها والده من أبيها سيد بني زهرة وهب، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبا(جهة الأب) وموضعًا(أي جهة الأم). وبنى بها عبد الله، وبقي في بيت أبيها ثلاثة أيام على عادة العرب في ذلك، حتى كان اليوم الرابع انتقل إلى منازل بني عبد المطلب، وقد شاء الله أن تكون عشرة أيام هي عمر الحياة الزوجية في هذا الزواج المبارك.

## 3- ولادته ونشأته صلى الله عليه وسلم:

تذكر آمنة بنت وهب حين حملت بابنها محمد صلى الله عليه وسلم، أنها لم تر أخفّ ولا أيسر منه، ولم تجد له ثقلا كما تجد النساء. وأُوتيت وهي بين النائم واليقظان، فقيل لها: إنك حملت بسيّد هذه الأمة

ونبيّها، وذلك يوم الاثنين، ثم أمهلني حتى إذا دنت ولادتي أتاني ذلك الآتي فقال: إذا وقع إلى الأرض فقولي: أُعيذه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سميه محمدا أو أحمد. ورأت حين خرج منها معه نورا أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام، تقول آمنة: لما فُصل مني(تعني النبي) وقع على الأرض جاثيا على ركبتيه، معتمدا على يديه، ثم أخذ قبضة من التراب، فقبضها، ورفع رأسه إلى السماء.

وُلد عليه الصلاة والسلام في فصل الربيع بعد الفجر الصادق وقبل شروق الشمس من يوم الاثنين باتفاق، لليلتين خلت من ربيع الأول، وقيل ثامنه، وقيل التاسع منه، وقيل عاشره، وقيل لثنتي عشرة منه. وقد ذهب العلامة المنصور فوري أن ميلاده يكون في التاسع من ربيع الأول من عام الفيل؛ لأنه يوافق يوم الاثنين 20 أفريل سنة 571م. واختُلف أيضا في مكان ولادته من مكة، ففيه روايات متعددة: البعض يذكر في الدار التي في الزقاق المعروف بـ "زُقاق المولد" في شِعب مشهور بشِعب بني هاشم، وقيل في الدار التي عند الصفا، وقيل بعسفان. وكان صلى الله وعليه وسلم وحيد أبويه، وقد توفي والده قبل ولادته عن عمر ناهز 25 سنة. ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده، فجاء مستبشراً ودخل به الكعبة، ودعا الله وشكر له، واختار له اسم محمدا.

وفي اليوم السابع احتفى الجدّ بالمولود الجديد – على عادة العرب- فنحر الذبائح وأقام الولائم، شكرا لله، وبهجة بالوليد الذي رأى في حياته حياة موصولة بابنه الغالي عبد الله، وقد شارك البيت الهاشمي في الغبطة بالوليد الجديد، فهذه ثُويبة الأسلمية جارية أبي لهب بن عبد المطلب لما بشّرت سيّدها بميلاد ابن أخيه محمد أعتقها؛ لذلك بعد موته كان يخفّف عنه من العذاب في ليلة من الأسبوع؛ فقد روى العباس بن عبد المطلب، أنه رأى أخاه أبا لهب في المنام بعد موته بسنة، وذلك بعد بدر، فسأله عن حاله، فأجاب أبو لهب: في النار إلا أن العذاب خفّف عني كل ليلة اثنين بماء أمصّه من بين أصبعي هاتين: السبّابة والإبهام، وذلك أني أعتقت ثويبة حينما أخبرتني بميلاد محمد، وهذا رغم أذيّته الشديدة لرسول الله، وهلاكه على الكفر والشرك.

حاضنته بعد ولادته صلى الله وعليه وسلم أم أيمن بركة الحبشية أَمَة أبيه، وأول من أرضعته من المراضع – وذلك بعد أمه بأسبوع - ثُويبة أَمَة عمّه أبي لهب. ثم استُرضع صلى الله عليه وسلم في بني سعد بن بكر، وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي؛ ليكون أنجب للولد. روى ابن إسحاق قصة استرضاع حليمة لرسول الله وذكر، بأن نسوة من بني سعد بن بكر حللن بمكة يطلبن أطفالاً يرضعنهم، فكان الرضيع المحمود المبارك صلى الله علي وسلم من نصيب حليمة بنت ذؤيب بن الحارث السعدية، وما رأت من بركته صلى الله وعليه وسلم ما قضت منه العجب بعد تسلمها له، إذ قال لها زوجها الحارث: يا حليمة، أما والله إني لأراك قد أخذت نَسَمة مباركة.

ووقعت لمحمد صلى الله عليه وسلم وهو في بادية بني سعد، حادثة شق الصدر وغسله عندما كان طفلا في الرابعة من عمره، فقد روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب، وانتزع منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظئره(مرضعة ولد غيرها) فقالوا: إن محمداً قد قتل؛ فلحقوا به واستقبلوه وهو منتقع اللون".

لقد أدت هذه الحادثة إلى إعادة الرسول إلى أمه وجدّه عبد المطلب؛ لأن حليمة خافت عليه، ورغبت في إنهاء مسؤوليتها عنه رغم حبّها له وتعلقها به. وبقي مع أمه إلى أن بلغ ست سنين، وفي إحدى الأيام توجهت به إلى المدينة؛ لزيارة أخوال أبيه بني عدي بن النجار، وبينما هي عائدة أدركتها منيتها في الطريق، فماتت بالأبواء بين مكة والمدينة، ودفنت هناك، فحملته مولاته وحاضنته أم أيمن، وكفله جدّه عبد المطلب بمكة، ورقَّ له رِقّة لم تُعهد له في ولد. ثم توفي جده عبد المطلب وكان عمر النبيّ صلى الله عليه وسلم ثماني سنوات، فكفله شقيقُ أبيه أبو طالب بوصية من جدّه، وكان به رحيماً أيضا.

وقد وردت روايات تفيد عطف أبي طالب عليه وتعلقه به، فكان لا ينام إلا ومحمد إلى جنبه، ولا يخرج إلا معه، ويخصّه بالطعام، ولا يأكل إلا عند حضوره، وإذا أكل رسول الله مع عياله شبعوا ويفضلون من طعامهم، فيعجب أبو طالب ويقول: إنك لمبارك. كان الصبيان يصبحون رُمْصا شُعثا،

ويصبح محمد دهينا كحيلا. ويبدو أنه في فترة حضانة عمّه ساعده الفتى محمد صلى الله وعليه وسلم في رعي الغنم؛ ولعل ضيق حال أبي طالب هو الذي دفعه إلى العمل لمساعدته، فقد روى عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما بعث الله نبيّا إلا رعى الغنم»، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة».

**4- بَحِيرى الراهب ومحمد صلى الله عليه وسلم:**

لما بلغت سنّه صلى الله عليه وسلم الثانية عشرة، خرج مع عمّه أبو طالب في تجارة له إلى الشام، فتعلقت نفس ابن أخيه به، ورغب في مصاحبته؛ فرقّ له عمه، واستصحبه معه حتى وصل الرّكب إلى بُصرى من بلاد الشام، وكان بها راهب يقال له "بحِيرى" عنده علم بالكتب السماوية السابقة، وقد علم منها أنه قد آن مبعث نبي آخر الزمان وأنه من العرب. وقد جذب انتباهه إلى القافلة، عندما رأى غمامة تظلل شخصا منهم، فصنع لهم طعاما على غير عادته ودعاهم إليه، فلما حضروا صار يتفرّس فيه - صاحب الصفة - ويتعرف على بعض صفاته، ثم تحايل حتى رأى خاتم النبوة بين كتفيه على صفته التي عندهم في الكتب، فأقبل على أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال ابني، قال بحيرى: وما ينبغي أن يكون أبوه حيا، قال أبو طالب: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال صدقت فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه، وعرفوا ما عرفت لَيبْغُنّه شرًا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده؛ فخرج به عمّه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام.

**5- شهوده صلى الله وعليه وسلم حرب الفِجار وحلف الفضول:**

سميت حرب الفِجار؛ لأنهم فجروا واستباحوا الأموال والنفوس في الأشهر الحرم، التي حُرّم فيها القتال. كانت بين قريش ومن معها من كنانة، وقيس عيلان وأحلافها، وقد شهدها المصطفى صلى الله وعليه وسلم وكان قد بلغ أربع أو خمس عشرة سنة. وسبب هذه الحرب، أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة بعث بقافلة إلى سوق عكاظ، وكان في حاجة إلى من يجيرها له، فجلس يوما وعنده البَرَّاض بن قيس الكناني، وعروة بن عتبة الرّحال، فقال: من يجير تجارتي حتى تَبْلغ عكاظ، فقال البرّاض بن قيس: أنا أجيرها على بني كنانة، وكان البرّاض فاتكا خليعا خلعه قومه؛ لكثرة شرّه، قال النعمان: أنا أريد من يجيرها على الناس كلهم. قال عتبة أنا أجيرها على الناس كلهم، فأخذ عروة القافلة فتربص به البراض وقتله غدرا، فوصل الخبر إلى قريش، واشتعلت الحرب بين قريش وأحلافها وقيس عيلان وأحلافه، دامت أربع سنين كاملة. وقد شهد النبي محمد بعض أيامها مع أعمامه، وقال: "كنت أنبل على أعمامي"؛ أي يجهز لهم النبل للرّمي.

وعلى إثر هذه الحرب وقع حلف الفضول أو المُطَيَّبين في ذي القعدة في شهر الحرام، تداعت إليه قبائل من بني هاشم وبني أمية وبني زهرة وبني مخزوم.. وسبب الحلف أن رجلا من زَبيد قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي، ولكن لم يعطه الثمن ومطل به؛ فطلب الرجل من ينصره، فلم يجد أحدا في أول الأمر؛ فرقى جبل أبي قبيس، ونادى بأعلى صوته مستنجدا، وقال في ذلك شعرا. ولما سمع القوم اجتمعوا في دار "عبد الله بن جدعان"؛ وتعاهدوا على التناصر والأخذ للمظلوم من الظالم بمكة، ورد الفضول على أهلها. وقد وشهد النبي صلى الله عليه وسلم الحلف يومذاك وهو في العشرين من عمره، قال رسول صلى الله وعليه وسلم بعد أن أكرمه الله بالرسالة: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا، ما أُحبُّ أن لي به حُمُر النَّعْم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت".

ومن نافلة القول؛ فقد كانت حياته صلى الله عليه وسلم قبل البعثة حياة فاضلة شريفة، لم تعرف له فيها هفوة، ولم تُحْص عليه فيها زلّة، لقد شبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يحوطه سبحانه وتعالى بعنايته، ويحفظه من أقذار الجاهلية؛ لما يريده له من كرامته ورسالته، بحيث نزّهه عن المعاصي والموبقات، فكان لا يشرب الخمر، ولا يأكل مما ذُبح على النّصب، ولا يحضر للأوثان عيدا، ولا احتفالا، بل كان من أول نشأته نافرا من هذه المعبودات الباطلة، حتى صار أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حِلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأذى، وما رُئِى مُلاحيًا ولا مماريا؛ حتى سماه قومه الأمين.

المحاضرة الرابعة: مقياس: السيرة النبوية
الدكتور: الجباري عثماني السنة الأولى جذع مشترك علوم إسلامية

# من المبعث إلى الهجرة

## 1- حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبيل البعثة:

### 1-1- محمد وخديجة بنت خويلد من الشراكة في التجارة إلى شريكة الحياة:

كانت خديجة رضي الله عنها سيدة تاجرة ذات شرف، ومال، وتجارة تبعث بها إلى الشام. وكانت تستأجر الرجال، وتدفع إليهم المال مضاربة(أي، تقارضهم). ولما سمعت خديجة عن محاسن النبي صلى الله عليه وسلم وأوصافه، وعلمت بصدقه وأمانته وحسن تدبيره، بعثت إليه بنفسها؛ وعرضت عليه أن يخرج في مال لها بالشام تاجرا، وتعطيه أفضل مما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له "مَيْسَرة"، فقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم منها، وخرج معه غلامها ميسرة حتى بلغ الشام. فنزلا في سوق بصرى تحت ظل شجرة قريبا من صومعة راهب يدعى "نَسطورا"، فاطلع الراهب على ميسرة، فقال: من هذا الرجل الذي تحت هذه الشجرة؟ فقال مَيْسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي.

وباع النبي التجارة وابتاع، وعاد بربح وفير، وعاد ومعه غلام خديجة، ووصل الرّكب في الظهيرة إلى مكة، ولما دخل عليها النبي أخبرها بخبر التجارة وما ربحت؛ فسُرّت لذلك سرورا عظيما، وخرج النبي، وترك ميسرة يقصُّ على سيّدته من شأن سيّده محمد، من حديث الراهب عنه، ومن تلك الغمام التي تظلله من الحر وقت الهاجرة، وعن حسن معاملته، وأمانته، وعطفه. وحين سمعت خديجة بهذا؛ أرادت الزواج منه - رغم أنها رفضت من قبل هذا الزواج من أي من عظماء قريش وسادته - فأرسلت دسيسًا صديقتها نَفيسة بنت مُنيه إلى محمد تطلب يده للزواج، فقبل المصطفى ذلك العرض. فحضر صلى الله عليه وسلم في عمومته، وزوجه أحدهم، وزوج خديجة عمها عمرو بن أسد، وأصدقها عشرين بكرة. وتزوجها النبي وهو ابن خمسا وعشرين سنة، وخديجة بنت أربعين. وقد أنجبت منه ذكرين هما: القاسم وعبد الله(الملقب بالطيب والطاهر)، وأربع بنات وهن: زينب وأم كلثوم، فاطمة، ورقية، فأما القاسم وعبد الله فماتا قبل البعثة، وأدركت البنات الإسلام فأسلمن، ولم يتزوج رسول على خديجة حتى ماتت، وكانت نعم الزوجة والصاحبة.

### 1-2- المشاركة في تجديد بنيان الكعبة:

لما بلغ صلى الله عليه وسلم خمسا وثلاثين سنة، جاء سيل عارم فصدّع جدران الكعبة، وأوهن أساسها، وكان من قبل قد أصابها حريق بسبب امرأة كانت تجمِّرها. وقد أخذ السُّراق كنزها ولم تكن مسقوفة. وقد كانت رَضما فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها؛ فأجمعت قريش على بنائها، واشترطوا أن لا يدخل في عمارتها إلا الطيّب من أموالهم، ولا يدخل فيها مال من بيع ربا، أو مهر بغي، ولا مظلمة أحد من الناس. وأول من بدأ نقض الجدران الوليد بن المغيرة المخزومي وتبعه الناس وكانوا يهابون ذلك، ثم أخذوا في بنائها ورفعوها ثمانية عشر ذراعا، وجعلوا لها بابا واحدا ورفعوه؛ حتى لا يدخلها إلا من أرادوا.

وقد جعلت كل قبيلة تجمع على حدتها الحجارة وتبني، حتى بلغ البنيان موضع الركن(الحجر الأسود) اختصموا في وضعه؛ كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوزوا وتحالفوا وتواعدوا للقتال، فمكثت قريش أربع أو خمس ليال على ذلك، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاورا وتناصفوا؛ وقد أشار عليهم أبا أمية بن المغيرة وكان عامئذ أسنَّ قريش كلها، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم. ففعلوا؛ فكان أول داخل رسول الله، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد. ولما أخبروه الخبر، قال رسول الله: هلمّ إليّ ثوبا، فأُتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثم قال لتأخذ قل قبيلة بناحية من الثوب، ثم رفعوه فأخذه بيده ووضعه في مكانه، وأكملوا البناء بعد ذلك. وكان بناء قريش الكعبة بعد الفِجار بخمس عشرة سنة.

## 2- بين يدي النبوة:

2-1- **إرهاصات نبوته عليه الصلاة والسلام**:

لقد بشّر الأنبياء السابقين بنبوته عليه الصلاة والسلام، وإن علماء اليهود والنصارى كانوا يعرفون رسول الله قبل مبعثه؛ مما يجدونه من أوصافه وزمان خروجه في التوراة والإنجيل، قال تعالى:﴿**الذين يتبعون الرسول النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوبا في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحلّ لهم الطّيبات ويُحرّم عليهم الخبائث..**﴾[الأعراف، 157]. ومن إرهاصات نبوته الرؤيا الصادقة؛ وهي أول ما ابتدئ به رسول الله من النبوة؛ حين أراد عز وجل كرامته ورحمة العباد به، أن لا يرى رسول الله رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح. ومن علامات النبوّة، تسليم الحجر عليه قبل النبوة، قال عليه الصلاة والسلام: «إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن».

وفي الثامنة والثلاثين من عمره؛ حُبّب إلى رسول الله الخلوة والتحنث(التعبد)، والانصراف إلى الخالق، فكان يخلو بغار حراء بجبل النور في رمضان من كل عام، حيث كان يرى الأنوار، ويسمع الهَواتِف، ويطعم من جاءه من الفقراء والمساكين، فإذا قضى جواره من شهره كان أول ما يبدأ به الطواف بالكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعا، ثم يرجع إلى بيته، وكانت السيدة خديجة تعينه على هذه الخلوة، وتُعدُّ له الزاد والطعام، وكان رسول يرجع إليها في أثناء الخلوة؛ ليتعهدها، ويأخذ زاده، وقد مكث رسول على هذه الحال ستة أشهر.

2-2- **نزول الوحي**:

لما بلغ عليه السلام سن الكمال وهي أربعون سنة، أرسله الله رحمة للعالمين، وكان ذلك في نهار يوم الاثنين الحادي والعشرين من شهر رمضان الموافق 10 أوت 610م، جاءه جبريل بغتة لأول مرة داخل غار حراء واستعلن له. قالت عائشة رضي الله عنها: فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ؛ فأخذني فغطّني(ضمني وعصرني) حتى بلغ مني الجَّهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ؛ فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجَّهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ؛ فأخذني فغطّني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿**اقرأ بسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم**﴾[سورة العلق، 1-5]. وبعد نزول هذه الآيات الخمس رجع النبي عليه الصلاة والسلام وهو يرتعد من شدة الخوف، حتى أتى السيدة خديجة فقال: زمِّلوني زمِّلوني، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، فأخبرها بما جرى، وقال لها: "لقد خشيت على نفسي"؛ فقالت خديجة: كلا أبشر، والله ما يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ(الضعيف)، وتَكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. وزاد البعض: وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة.

ثم انطلقت به خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل كان شيخا كبيرا قد عميَ، فقالت له خديجة: اسمع من ابن أخيك. فقال ورقة: ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره النبي عليه الصلاة والسلام مار رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعا أكون حيا حين يخرجك قومك، فقال رسول الله، أو مخرجيّ هم؟ فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا. ثم لم ينشب(يلبث) أن توفي. وفتر الوحي عنه صلى الله عليه وسلم؛ وحزن لذلك وغدا منه مرارا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدّى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقا؛ فيسكن لذلك جأشه.

وقد أُختلف في مقدار فتر الوحي، فقيل ثلاث سنوات، وقيل أقل من ذلك، والراجح كما عند الخضري وأبو شهبة أربعون يوما، أو كانت ستة أشهر. وروي عنه عليه الصلاة السلام في شأن فتر الوحي: "بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحِراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه؛ حتى هويت إلى الأرض، فأتيت خديجة فقلت: زمّلوني، زمّلوني، دثّروني، وصبّوا عليّ ماء باردا، فأنزل الله عز وجل: ﴿**يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبّر، وثيابك فطهّر، والرّجز فاهجر**﴾[المدثر، 1-5]. وذلك قبل أن تفرض الصلاة، ثم حمي الوحي بعد وتتابع.

3- **الدعوة الإسلامية المحمدية بمكة**:

مرت دعوته عليه الصلاة والسلام إلى الإسلام في المرحلة المكية بمرحلتين، الدعوة إلى الله سراً ودامت ثلاث سنوات، والثانية الدعوة جهرا، وباللسان فقط واستمرت إلى الهجرة.

3-1- **مرحلة الدعوة السريّة**: أخذ النبي عليه الصلاة والسلام يدعو قومه من أول ما نزلت عليه النبوة ثلاث سنين مستخفيا، وكان طبيعيا أن يبدأ بأهل بيته، وأصدقائه، وألصق الناس به.

والسابقون الأولون للإسلام نذكر: كان أول من آمن به من النساء، بل أول من آمن به عليه الصلاة والسلام زوجه السيدة خديجة رضي الله عنها، وأنها صدّقت الرسول وآزرته وثبتته وخففت عنه، وهوّنت عنه أمر الناس. وأول من آمن من الرجال الأحرار، الأشراف، صديقه الحميم أبوبكر بن أبي قحافة التيْمي، والذي واساه بنفسه وماله، وأفضل الأمة بعد رسولها. وأول من آمن به من الصبيان ابن عمه، والمتربي في حجره علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وكانت سِنّه إذ ذاك عشر سنين على أرجح الأقوال، وقد صار فيما بعد خَتَن رسول الله على ابنته السيدة فاطمة. وأول من آمن من الموالي، حِبُّه، ومولاه، ومتبناه: زيد بن حارثة الكلبي؛ الذي آثر رسول الله على والده وأهله. وأجابت أيضا حاضنته أم أيمن التي زوّجها لمولاه زيد. وأول من أسلم من العبيد، بلال بن رباح الحبشي مولى الطاغية أمية بن خلف، والذي صار فيما بعد مؤذن رسل الله عليه الصلاة والسلام. وكذالك سارع إلى الإسلام بنات رسول الله، واقتدائهم بأمهن، قالت عائشة رضي الله عنها: "لمّا أكرم الله نبيّه بالنبوّة، أسلمت خديجة، وبناته".

ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام، وكان رجلا محببا سهلا، ذا خلق ومعروف، دعا من يثق فيهم من رجال قريش فأجابه جمع منهم: عثمان بن عفان، الزبير بن العوام، عبد الرحمن بن عوف(كان اسمه في الجاهلية عبد عمرو فسمّاه عليه السلام عبد الرحمن)، ومنهم سعد بن أبي وقاص، ومنهم طلحة بن عبيد الله. وممن سبقوا إلى الإسلام صهيب الرومي من الموالي، وعمار بن ياسر العنسي وأبوه ياسر وأمه سُمية. ومن السابقين الأولين عبد الله بن مسعود، كان رضي الله عنه كثير الدخول على الرسول لا يحجب ويمشي أمامه، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويلبسه نعليه إذا قام، فإذا جلس أدخلهما في ذراعية. ومن السابقين أيضا؛ أبو ذر الغفاري، وسعيد بن زيد العدوي وزوجه فاطمة بنت الخطاب أخت عمر، ولبابة زوج العباس، وعبيدة بن الحارث، وعثمان بن مظعون وأخوه قُدامة، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي القرشي وغيرهم.

كان هؤلاء يلتقون برسول الله سراً، وإذا أراد أحدهم ممارسة عبادة من العبادات ذهب إلى شعاب مكة؛ يستخفي فيها عن أنظار قريش. ثم لما أربى الذين دخلوا الإسلام على الثلاثين ما بين رجل وامرأة، اختار لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام دار أحدهم، وهو الأرقم بن أبي الأرقم التي تقع على الصفا؛ ليلتقي بهم فيها لحاجات الإرشاد والتعليم، وكانت حصيلة الدعوة في هذه الفترة ما يقارب أربعين رجلا وامرأة دخلوا في الإسلام، عامتهم من الفقراء والأرقاء، وممن لا شأن له بين قريش.

3-2- **مرحلة التبليغ الجهرية**: بعد أن دعا رسول الله للإيمان مستخفيا ثلاث سنين، أُمر عليه الصلاة والسلام، أن يصدع بما جاء من عند الله، وأن يُناديَ الناس بأمره، وأن يدعوهم إلى الله مصداقا لقوله تعالى: ﴿**فأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين**﴾[سورة الحجر، 94]. وأول ما نزل بهذا الصدد قوله تعالى:﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾[الشعراء، 213]. فصعد عليه السلام على الصفا وبدأ يعدد أفخاذ قريش وقال: إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وأن تقولوا لا إله إلا الله، فقال: أبو لهب: تبّا لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل تعالى في حقّه قرآنا يتلى قال جلّ وعز: ﴿**تبّت يدا أبي لهب وتبّ، ما أغنى عمه ماله وما كسب، سيصلى نارا ذات لهب، وامرأته حمّالة الحطب، في جيدها حبل من مسد**﴾[سورة المسد].

لم يثن ذلك عن عزمه عليه الصلاة والسلام في التبليغ، وانطلق يدعو إلى الله تعالى ليلا ونهارا، سرا وجهرا. وكفار قريش في أول أمرهم غير منكرين لما يقول، بحيث إذا مرّ في مجالسهم يشيرون إليه: إن غلام بني عبد المطلب ليُكلّم من السماء، إلى أن عاب آلهتهم، وذكر آباءهم الذين ماتوا على الكفر، فانتصبوا لعداوته وعداوة من آمن معه، يعذّبون من لا منعة عنده أشد العذاب، ويؤذون من لا يقدرون على عذابه. وحدب(عطف) على النبي عليه الصلاة والسلام عمّه أبو طالب، ومنع الله عن رسوله به؛ لأنه كان شريفا معظما فيهم، وكان من حكمة أحكم الحاكمين بقاؤه على دين قومه لما في ذلك من المصالح، التي تبدو لمن تأملها.

واشتد غيض الكفار على رسول الله وصحبه، وشكوه لعمّه أبو طالب مرتين، وطلبوا منه أن يُخلّيَ بينهم وبينه أو يكفّه عما يقول، ولما لم يجدوا من عمه استجابة لمسعاهم؛ بل قال له: يا ابن أخي، اذهب وقل ما أحببت والله لا أسلمك. لهذا رأى رسول من المشركين كثير الأذى خصوصا إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت، وكان من أعظمهم أذى لرسول الله جماعة سُمُّوا لكثرة أذاهم بالمستهزئين. وأولهم أبو جهل القرشي، قال يوما: إني أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر لا أطيق حمله، فإذا سجد رضختُ به رأسه، فلما أصبح أخذ حجرا كما وصف، فلما سجد رسول احتمل أبو جهل الحجر وأقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه من الفزع، ورمى الحجر من يده، قالوا له مالك يا أبا الحكم؟ قال: لما دنوت منه عرَض علي فحل من الإبل، والله ما رأيت مثله قطّ، همّ بي ليأكلني؛ فلما ذكر ذلك لرسول الله قال ذاك جبريل لو دنا مني لأخذه.

4- **الهجرة إلى الحبشة**:

من الثابت أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة مرتين، وكانت **الهجرة الأولى** في شهر رجب من السنة الخامسة من المبعث، وهم أحد عشر رجلا وأربع نسوة، خرجوا مشاة إلى البحر، فاستأجروا سفينة بنصف دينار. وهذا لما ذاقت مكة، وأوذي رسول الله، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم، فقال لهم رسول الله: "إن بأرض الحبشة ملكا لا يُظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه"؛ فخرجنا إليها - كما يقول أحدهم- أرسالاً حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمنّا على ديننا ولم نخش منه ظلما، وكان أول من خرج عثمان بن عفان ومعه زوجه رقية بنت رسول الله. وهي أول هجرة في الإسلام.

وفي السنة السادسة من مبعثه عليه الصلاة والسلام، أسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فعزّ بإسلامهما الإسلام، وطلب عمر من رسول الله أن يعلن صلاته ففعل، وقد أدرك الكفار كآبة كبيرة حينما رأوْا عمر أسلم؛ وكانوا قد أرادوا قتله.

وأما **الهجرة الثانية للحبشة**، فكانت بعد ثلاثة أشهر من خروج مهاجري الحبشة؛ إذ لمّا بلغهم بإسلام قريش وسجود المشركين مع رسول الله عليه الصلاة والسلام عند قراءة سورة النجم وهي إشاعة كاذبة. ولما رجعوا إلى مكة؛ فلقوا من المشركين أشدّ مما عهِدوا، فأذن لهم رسول الله في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلا، وثماني عشرة امرأة؛ فأقام المهاجرون بأرض الحبشة عند النجاشي بأحسن جوار. ولما رأت قريش ذلك أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدايا إلى النجاشي وبطارقته؛ ليسلم المسلمين، فرجعا شرّ رجعة ولم ينالا من النجاشي إلا إهانة؛ لما رأى من المسلمين صدق نبوّة رسولهم عليه الصلاة والسلام. ولما سمعوا(المهاجرين) بهجرة رسول الله إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلا ومن النساء ثمانية.

# السيرة بين هجرة الحبشة إلى الهجرة إلى المدينة

## 1- عزم الصدّيق على الهجرة إلى الحبشة:

حين ضاقت على الصدّيق مكة، وأصابه فيها الأذى ورأى من تظاهر قريش على رسول الله وأصحابه ما رأى، استأذن رسول الله في الهجرة فأذن له، وخرج أبو بكر رضي الله عنه مهاجرا حتى إذا سار من مكة يوما أو يومين، لقيه "ابن الدُّغنّة" سيد الأحابيش، فقال: إلى أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي وآذوني وضيّقوا عليّ، فقال: مثلك لا يُخرج، فوالله إنك لتزين العشيرة، وتُعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم، أرجع فإنك في جواري؛ فرجع معه حتى إذا دخل مكة، فقال: يا معشر قريش إني قد أجرت ابن أبي قحافة؛ قبلت قريش الجوار بشرط أن تكون عبادته في منزله، لكن النساء والصبيان والعبيد يقفون عنده إذا صلى وقرأ في فناء بيته؛ فذكرت قريش لابن الدغنة إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا؛ فكان منه إلا أن خيّر الصدّيق بين الكف على ذلك أو ردّ عليه الجوار، فقال الصديق: أردُّ عليك جِوارك وأرضى بجوار الله. ولاقى بعدها الصديق ألوانا من الأذى من قِبل قريش.

## 2- صحيفة المقاطعة:

يذكر ابن سعد في طبقاته، أنه لمّا بلغ قريشا فعل النجاشي لجعفر وأصحابه - من مهاجري الحبشة – وإكرامه إياهم، وأن عمر قد أسلم، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل؛ مما كبُر ذلك عليهم وغضبوا من رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأصحابه، وأجمعوا على قتل رسول الله. وقد واجه أبو طالب مطالبة قريش بتسليم النبي عليه الصلاة والسلام ليقتلوه بالرفض، ثم لمّا رأى في تحركاتهم وتصرفاتهم ما يؤكد أنهم يريدون قتله وإخفار ذمته؛ جمع بني هاشم وبني عبد المطلب، ودعاهم إلى القيام بحفظ النبي عليه الصلاة والسلام؛ فأجابوهم إلى ذلك كلهم مسلمهم وكافرهم حميَّة للجوار العربي، وتعاقدوا وتعاهدوا عليه عند الكعبة، إلا ما من أخيه أبا الحكم عمرو بن هاشم أبو لهب، فإنه فارقهم وكان مع قريش.

لهذا اجتمعوا وائتمروا بينهم(قريش)، أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب، على أن لا ينكحوهم ولا يبيعونهم شيئا، ولا يبتاعوا منهم؛ فلما اجتمعوا في ذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علّقوا الصّحيفة في جوف الكعبة توكِيدًا على أنفسهم، وكان كاتب الصّحِيفة "منصور بن عكرمة"، ويذكر ابن هشام آخر ويزعم أنه "النّضْر بن الحارث"؛ فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فَشُلّ بعض أصابعه. وحصروا بني هاشم وبني عبد المطلب في شِعب أبي طالب ومن اتبعهم من المؤمنين، ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة. واشتدّ وَجْد قريش على رسول الله وأصحابه، وضربوهم في كل طريق، وقطعوا عنهم المادة من الأسواق وكل اتصال. ففعلوا ذلك ثلاث سنين حتى بلغ القوم الجَّهد الشديد.

## 3- نقض الصحيفة:

لقد كانت قريش في أمر الحصار الاقتصادي والاجتماعي بين راض وكاره، فسعى في نقض الصحيفة من كان كارها، وقد قام خمسة من أشراف قريش بنقض هذه الصحيفة الظالمة وهم: هشام بن عمرو العامري وهو أعظمهم في ذلك بلاء، وزهير بن أبي أمية - ابن عمّة الرسول عاتكة- والمُطعم بن عدي، وأبو البختري بن هشام، وزَمْعة بن الأسود، واتفقوا على ذلك ليلا. فلما أصبحوا غدا زهير وعليه حلة فطاف بالبيت، ثم أقبل على الناس فقال: يأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون، والله لا أقعد حتى تُشقّ هذه الصحيفة الظالمة القاطعة؛ فقال أبو جهل: كذبت، فرد عليه زمعة: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت، فقال أبو البختري: صدق زمعة، وقال المُطعم صدقتما وكذب من قال غير ذلك، وقام إليها ليشقّها فوجد الأَرَضة قد أكلتها إلا بسمك اللهم.

وكان الله قد أطلع رسوله على ذلك، فذكر رسول لأبي طالب: "يا عم، إن ربي قد سلّط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسما هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان"؛ فقال

أربك أخبرك بهذا؟ قال نعم، فخرج إلى قريش، وقال: إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلم صحيفتكم، فإن كان كما قال ابن أخي، فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها، وإن يكن كاذبا دفعت لكم ابن أخي، فقال القوم: رضينا، فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا، فإذا هي كما قال رسول عليه الصلاة والسلام؛ فزادهم ذلك شرا وعنادا وطغيانا.

ورغم الآيات الدالة على نبوته، لكن قريشا تمادت في غيّها واستعصت على رسول عليه الصلاة والسلام، وأبطأوا عن الإسلام، وأوغلوا في عداوة النبي وإيذائه وإيذاء أصحابه، دعا عليهم فقال: "اللهم أعنّي عليهم بسبع كسبع يوسف"؛ أصابتهم سَنَة(جدب وقحط) فحصّت كل شيء؛ حتى أكلوا الجيف والموتى، والعظام، حتى كان الواحد منهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع، فجاء أبو سفيان في ناس من قومه يسأل رسول الله أن يدعوا لهم ويناشده الرحم، فدعا لهم الرؤوف الرحيم، فكشف الله عنهم ما هم فيه، وقد أشار تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله: ﴿**فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين، يغشى الناس هذا عذاب أليم**﴾[الدخان، 10] إلى قوله تعالى: ﴿**إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون**﴾[الدخان، 15]. وبعدما كشف الباري جل وعز عنهم العذاب؛ فعادوا إلى الكفر.

**4- عام الحزن؛ وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها:**

لقد انجابت الغمة، وأزال الله الكربة عن بني هاشم والمطّلب والرسول والمؤمنين بشقّ الصحيفة الظالمة، وعادت الأمور كما كانت، ولكن حدث حادثان سبّبا للنبي عليه الصلاة والسلام غاية الحزن:

أحدهما، موت عمّ النبي وناصره، ومانعه من قريش أبي طالب بن عبد المطلب، وكان قد ألحّ عليه المرض فلم يلبث أن وافته المنية، وكانت وفاته في رجب سنة عشر من النبوة، بعد الخروج من الشعب بستة أشهر. وقيل في رمضان قبل وفاة السيدة خديجة بثلاثة أيام. ولما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي عليه الصلاة والسلام، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: "يا عمّ قل لا إله إلا الله أُحاجّ لك بها عند الله"، فقالا: أي أبا طالب، أترغب عن مِلّة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شيء: على ملة عبد المطلب، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: "لأستغفر لك ما لم أنهى عنه"، فنزلت: ﴿**ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين**﴾[التوبة، 113]، فلما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه منهم، فنثر على رأسه ترابا.

وأما الحادث الثاني الذي ترك حزنا عميقا في نفس النبي، فهو موت السيدة الجليلة المهيبة في قومها، والتي كانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة خديجة رضي الله عنها، وكانت له وزير صدق، كما كانت نعم الزوجة الصالحة العاقلة، يجد فيها سكن النفس وطمأنينة القلب وراحة الروح، فكان كلما ناله من قريش أذى عاد إليها؛ فتزيل عنه آثار الأذى بيديها، وتسري عن نفسه بقلبها وحنانها وحديثها المؤمن المستطاب. وكانت وفاتها بعد وفاة أبي طالب في السنة العاشرة من النبوة عن عمر ناهز خمسا وستين سنة، وتوفيت بعده في شهر رمضان بقليل، وقيل بأيام، وقيل بشهر، وقيل شهر وخمسة أيام.

**4- خروج النبي عليه الصلاة والسلام إلى الطائف:**

رغم مصاب النبي الجلل وفقده أهم ناصر ومعين له عمّه وزوجته، لم يثنيه ذلك على نشاطه الدعوي داخل مكة وخارجها. إذ لما رأى عليه الصلاة والسلام، استهانة قريش به واجترائهم عليه، اتجه إلى ثقيف بالطائف برفقة زيد بن حارثة رضي الله عنه؛ لأنهم للنبي فيها خؤولة، وهذا في ليال بقين من شوال سنة عشر من مبعثه، وفي الطريق عرض النبي عليه الصلاة والسلام الإسلام على القبائل التي تسكن بين مكة والطائف، ووصل إلى الطائف راجلا يدعو إلى التوحيد، قابل رؤساءهم وكانوا ثلاثة: عبد ياليل ومسعود وحبيب أولاد عمر بن عمير الثقفي، فعرض عليهم نصرته حتى يؤدي دعوته، فردّوا عليه ردّا قبيحا ولم يرى منهم خيرا، وحينذاك طلب منهم ألا يشيعوا ذلك عنه في قومه قريش، فلم تفعل ثقيف ما رجاه عليه الصلاة والسلام، بل أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم وعبيدهم؛ فراح هؤلاء يلقون الحجارة عليه حتى أدموا عقبه، وتجمدت الدماء في خفّه حتى صعب عليه خلعه للوضوء، وكان زيد بن حارثة يدرأ عنه حتى شج رأسه شجاج رضي الله عنه.

وما زالوا بهما حتى ألجأوهما إلى حائط بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه، فكره مكانهما؛ لعداوتهما الله ورسوله، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل شجرة من عنب فجلسا فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه. وفي هذه الغمرة من الأسى والحزن تضرع إلى الله بالدعاء. ولما رأى ابنا عتبة ما عليه النبي؛ تحركت رحمهما ورقّا له، وأرسلا بقطف من العنب مع مولى نصراني يدعى عدّاس، فلما ابتدأ رسول يأكل قال: باسم الله، قال: هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد، فقال عليه السلام: من أي البلاد أنت وما دينك؟ قال: نصراني من نينوى، فقال عليه الصلاة والسلام: من قرية الرجل الصالح "يونس بن متّى"، قال: وما علمك بيونس؟ فقرأ له من القرآن من قصة يونس؛ فلما سمع ذلك عدّاس أسلم.

وقد أقام عليه الصلاة والسلام في الطائف عشرة أيام داعيا، وعند رجوعه إلى مكة، سأله مولاه زيد: كيف تدخل عليهم(قريش) وهم أخرجوك؟ فقال: يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا، وإن الله ناصر دينه ومُظهر نبيّه، ثم انتهى إلى حراء، فأرسل رجلا من خزاعة إلى مُطعِم بن عدي: يطلب منه أن يدخل في جواره، فقال: نعم، فنادى عند أركان البيت، يا معشر قريش إني قد أجرت محمداً؛ فانتهى رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى الركن، فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته.

**4- قصة الإسراء والمعراج:**

لم يركن عليه الصلاة والسلام للراحة والدعة بعدما رجع إلى مكة، بل أخذ يطوف مع صديقه أبوبكر رضي الله عنه، عن القبائل خارج مكة يدعوهم إلى الإسلام، فقد أتى كندة، وقبيلة بني عبد الله، وقبيلة بني الأحنف، وقبيلة بني عامر بن صعصعة؛ فلاحظ صدود القوم عن الإيمان. وبعد هذه الشدائد المتلاحقة، كان من رحمته سبحانه بعبده عليه الصلاة والسلام أن أكرمه بالإسراء والمعراج قبل الهجرة بسنة في يوم الاثنين. والإسراء: هو إذهاب الله نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام، من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بفلسطين في جزء من الليل، ثم رجوعه في ليلته. وأما المعراج: فهو إصعاده من بيت المقدس إلى السموات السبع، وما فوق السبع، حيث فُرضت الصلوات الخمس، ثم رجوعه إلى بيت المقدس في جزء من الليل.

وحديث الإسراء والمعراج ثابت بنص القرآن قال تعالى: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير**﴾[الإسراء، 1]. وقد ورد في الصحيحين أنه تم شقّ صدره عليه الصلاة والسلام وهو في بيته في مكة – والبعض يقول في البيت الحرام-، أتاه جبريل ففرج صدره ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا، فأفرغه في صدري ثم أطبقه. ومُلأ قلبه إيمانا وحكمة؛ استعدادا للإسراء به. وبعد أن فُرغ من شق صدره وغسله، أُسري به إلى بيت المقدس على البراق(دابة دون البغل وفوق الحمار) حيث صلّى بالأنبياء، ثم عرج به إلى السماء السابعة مارا ببقية السموات الست، ملتقيا بالأنبياء: آدم، ويوسف، وإدريس، وعيسى، ويحي بن زكريا، وهارون، وموسى، وإبراهيم. وقد سمع صريف أقلام الملائكة، وفرضت عليه الصلاة خمسين ثم خُفّفت إلى خمس صلوات.

ثم رجع عليه الصلاة والسلام من ليلته، فلما أصبح غدا إلى نادي قريش، فجاء أبو جهل فأخبره بما جرى، وسمعت قريش بالخبر؛ فصاروا بين مصفق وواضع يده على رأسه إنكارا، وارتد بعض من المؤمنين من ضعاف القلوب، وسعى رجال إلى أبوبكر وأخبروه فقال: إن قال ذلك فقد صدق؛ فسُمِّيَ من ذلك اليوم صدّيقا. ثم قام الكفار يمتحنون رسول الله، فسألوه نعت بيت المقدس وفيهم رجال رأوه، ولم يكن قد تثبت منه، فجلاه الله فصار يصفه لهم بابا بابا وموضعا موضعا. وأخبرهم عن عِيرهم وكانت لهم عير قادمة من الشام؛ فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها، وقال تَنْدُمُ يوم كذا مع طلوع الشمس؛ وأقبلت العير كما ذكر ووصف عليه الصلاة والسلام.

**5- بيعتا العقبة الأولى والثانية:**

لما أراد الله أن يظهر أمر دينه على أيدي غير قريش من العرب، اختار نفرا من حجاج يثرب. فيُذكر أنه في موسم الحج من السنة الحادية عشرة للبعثة جويلية 620م، ورسول يطوف ليلا على القبائل داعيا، مرّ بعقبة منى فسمع أناسا يتكلمون، فقصد النبي مكان الصوت؛ فوجد ستة نفر من شباب يثرب كلهم من الخزرج، فذكر لهم رسول الله عظمة الله وجلاله، ودعاهم للإسلام، ومع أنهم كانوا وثنيين، إلا

أنهم طالما سمعوا من يهود مدينتهم مرة بعد مرة أن نبيّا سيبعث قريبا؛ ولهذا صدّقوه وأسلموا من فورهم وقالوا: إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك، ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل.

أ- **بيعة العقبة الأولى**: فلما كان موسم الحج العام المقبل 12 من البعثة جويلية سنة 621م، قدم اثنا عشر رجلا منهم عشرة من الخزرج واثنان من الأوس. ولقوه في العقبة، فأسلموا وبايعوا رسول الله عليه الصلاة والسلام على بيعة النساء، ولم يفرض يومئذ القتال، يقول عبادة بن الصامت: بايعنا رسول عليه الصلاة والسلام، على أن لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتيَ ببهتان نفتريَه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيَه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم شيئا فأمركم إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر. وأضاف عبادة: فبايعناه على ذلك. فلما أرادوا الانصراف بعث رسول الله عليه الصلاة والسلام معهم "مصعب بن عمير"، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يُسمى مقرئ المدينة، وهو أول سفير في الإسلام.

يذكر صاحب عيون الأثر، أن رسول بعث مع مصعب بن عمير عبد الله ابن أم مكتوم - وهو ابن خالة خديجة - يعلّمان من أسلم القرآن، ويدعوان من لم يسلم إلى الإسلام. ونزل مصعب على أسعد بن زرارة وأخذا يبثان الإسلام في أهل يثرب بجد وحماس، وكان مصعب يؤمُّهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمَّه بعض، فجمَّع بهم أوّل جمعة جُمِّعت في الإسلام. وقد أسلم على يديه(مصعب) سادة المدينة: من بني عبد الأشهل نجد "سعد بن معاذ" سيّد الأوس، وابن عمه "أُسيد بن حُضير"، و"سعد بن عبادة" سيّد الخزرج؛ فأسلم لإسلامهم كثير من قومهم، وقد انتشر الإسلام في دور يثرب حتى لم يكن بينهم حديث إلا أمر الإسلام.

أ- **بيعة العقبة الثانية**: في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من البعثة يوافق جوان 623م، حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفسا من المسلمين من أهل يثرب، جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين. يروي كعب من مالك – وهو أحد المبايعين – فواعدنا رسول الله العقبة من أوسط أيام التشريق، وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا، فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله، نتسلّل تسلُّل القطا(طائر) مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا، وامرأتان من نسائنا وهما: نُسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو؛ فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله، حتى جاءنا رسول الله ومعه عمه العباس أحبّ أن يحضر معه ويتوثق له، فتكلم العباس يريد التأكد من حماية الأنصار لابن أخيه في هجرته. وتكلم عليه الصلاة والسلام فتلا القرآن، ورغّب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

وحينذاك ابتدأت المبايعة، فبايعه الرجال على ما طلب، وأول من بايع أسعد بن زرارة، وقيل البراء بن معرور، وقيل أبو الهيثم بن التيهان، ثم بايعه السبعون كلهم، وبعدها تخير منهم اثني عشر نقيبا لكل عشيرة منهم واحد، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهم: أبو الهيثم بن التيهان، وأسعد بن زرارة، وأُسيد بن حُضير، والبراء بن معرور، وسعد بن أبي خيثمة، وسعد ابن الربيع، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة، وعبد الله بن عمر، وعبادة بن الصامت، والمنذر بن عمرو. ثم قال لهم: أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي. ولأَمرٍ ما أراده الله بَلَغ خبر هذه البيعة مشركي قريش، فجاءوا ودخلوا شِعب الأنصار وقالوا: يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجونه من أرضنا وتبايعونه على حربنا؛ فأنكروا ذلك وصار بعض المشركين الذين لم يحضروا المبايعة، يحلفون لهم أنه لم يحصل شيء في ليلتهم.

وهكذا مرت البيعة بسلام وعاد الأنصار إلى المدينة، ينتظرون هجرة النبي عليه الصلاة والسلام إليهم بتلهف كبير. ولقد اعتبر بعض من أرّخ لسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، أن بيعة العقبة الثانية كانت أخطر بيعة في تاريخ الدعوة الإسلامية؛ فقد كانت حدا فاصلا بين عهدين من عهود الدعوة، ولقد منَّ الله عليهم بهذه النعمة، بعد أن كانوا مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس من حولهم؛ فآواهم وأيدهم بنصره.

# الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة

لم تكن الهجرة إلى المدينة سياحة رَغِب فيها المهاجرون، ولم تكن مكة أرض وباء أو دار مملة ليفرح المهاجرون بنبأ الهجرة عنها، وإنما جاء أمر الهجرة تكليفا من تكاليف العقيدة التي آمنوا بها، وضرورة استلزمتها طبيعة رسالة الإسلام، ووجوب إبلاغها. ونتتبع أخبار هجرة المصطفى إلى المدينة في الفقرات الآتية.

## 1- إرهاصات الهجرة:

نجد أول إرهاصات الهجرة النبوية، حدث مع بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد عبّر عن هذا ورقة بن نوفل، حينما أخبره النبي بما رأى وبما سمع في غار حراء، ليتني أكون جذعا حيا إذ يُخرجك قومك، فقال رسول الله: أوَ مخرجيّ هم؟ قال: نعم، لم يأتي رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِي. وأما الإرهاص الثاني من إرهاصات الهجرة، يتمثل في أمور مزدوجة هي: دخول نفر من قريش وأتباعهم، وبعض رجالات العرب في دين الله بمكة، وتأذي قريش واستنكارها لهذا الاتجاه الجديد، وخوفهم من استفحال أمره. وجاء ثالث الإرهاصات مباشرا ومتصلا عن كثب بهذه الهجرة المرتقبة من قريش، والمرجوة من قبل النبي وأصحابه، وبخاصة أنه قد مهّد لها الطريق، ودلّ على نجاحها أمور عدة منها: نجاح هجرة بعض الصحابة إلى أرض الحبشة.

## 2- الإذن للمسلمين بالهجرة:

بعد بيعة العقبة الثانية وما وجده رسول الله من النصرة والتأييد من أهل يثرب, طابت نفسه وقد جعل الله له منعة, وقوماً أهل حرب, وعُدة ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين؛ لِمَا يعلمون من الخروج وأنه حالف قوما عليهم، فضيّقوا على أصحابه وتعبثوا بهم، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى؛ فشكا ذلك الصحابة إلى النبي صلى الله عليه وسلم واستأذنوه في الهجرة، وكان رسول الله يثبتهم، ويصبرهم، ويعدهم فرجاً ومخرجا من هذا الكرب. وقد رأى النبي عليه السلام فيما يرى النائم أنه هاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب ظنه إلى أنها اليمامة، أو هَجَر(بلدة بالبحرين)، ثم استبان له صلى الله عليه وسلم أنها المدينة، قال عليه الصلاة والسلام: «قد أريت دار هجرتكم، رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين»؛ وهما الحرّتان.

ثم مكث أيّاما عليه الصلاة والسلام، ثم خرج عليهم مسرورا فقال: قد أُخبرت بِدار هجرتكم وهي يثرب، وإن الله قد جعل لكم إخوانا ودار تأمنون بها، فمن أراد الخروج فليخرج إليها؛ فخرجوا أرسالاً، وجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسعون ويخرجون ويخفون ذلك. فكان أول من قدم المدينة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي وامرأته أم سلمة, ثم تتابع خروج أصحاب رسول الله، ومنهم: عامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبي خيثمة، فهي أول ظعينة –المرأة تركب البعير- قدمت المدينة، وهاجر جميع بني جحش بنسائهم، وقدم بلال، وسعد، وعمار، ثم خرج عمر بن الخطاب مستعلنا ومعه عياش بن أبي ربيعة في عشرين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وصهيب الرومي وغيرهم، ونزلوا كلهم على الأنصار فآووهم ونصروهم وواسوهم. وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أقام بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من الصحابة إلا من حُبس أو فُتن، إلا علي بن أبي طالب, وأبوبكر الصديق رضي الله عنهما، وكان بقاء الصديق بإذن من رسول الله، بحيث أن أبا بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً فيطمع أبوبكر أن يكونه.

## 3- ائتمار قريش برسول الله:

ولما رأت قريش أن رسول الله قد أصبح له أتباع كثيرون، وأنصار من أهل المدينة يُفدونه بأنفسهم وأهليهم وأولادهم، وأن أصحابه من المهاجرين قد أمسوا في دار أمان وعزة ومَنعة بعد أن هاجروا إليها، وتجمعوا فيها، وعند خروج رسول الله لهم ستكون الطامة على قريش، فسيحاربوهم، ويغتصبوا عليهم بلدهم؛

لهذا اجتمع أشرافهم ورؤساؤهم في اليوم الذي تواعدوا فيه في دار الندوة، يتشاورون فيما بينهم بشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد حضر الجلسة أيضا شيطان نجد العجوز المحنك في هيئة شيخ جليل.

اقترح أبو البختري عليهم: احبسوه في حديد، وأغلقوا عليه بابا، إلى أن يقضى عليه بالموت، لكنهم رفضوا ذلك مخافة أن يجتمع أصحابه وينقذوه، ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم وينقضوا عليكم. وأشار أبو الأسود: بأن نحمله على بعير جامح ونخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا؛ فنفرغ بذلك منه. لكن هذا الرأي لم يجد موافقه عند الشيخ النجدي والقوم؛ خشية أن يغلب النبيّ الناس بحديثه، ثم يجمع منهم قوة تدحر قريشاً في يومٍ من الأيام، وينتقموا لنبيّهم. ورأى أبو جهل أخيراً أن يأخذوا من كل قبيلة فتىً شاباً جلداً نسيبا وسيطا فينا، ثم يُعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً، فيعمدون إليه فيضربونه ضربة رجل واحد، وهكذا يتفرق دمُه بين القبائل جميعا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فيرضوا منّا بالعقل(الدِّية)، فعقلناه لهم، فحظي رأي أبو جهل بالقبول، وتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له.

4- **خروج رسول الله وصاحبه والتحصّن في الغار**:

وفيما كانت قريش تجمع فتيانها، نزل جبريل على نبيّ الله عليه الصلاة والسلام فأخبره الخبر وأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة، وقد أنزل سبحانه وتعالى في شأن هذه المؤامرة قوله: ﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا لِيُثْبتوك أو يَقتلوك أو يُخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**﴾[الأنفال، 30]. وكان من عادة رسول الله، أن يأتي بيت أبي بكر كل يومين بكرة وعشية، قالت عائشة: فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعاً - مغطياً رأسه - في ساعة لم يكن يأتينا فيها وقت الهاجرة، فقال أبوبكر: والله ما جاء به في هذه الساعة إلا لأمر حدث، فجاء رسول الله فاستأذن له، فدخل، فاستأخر أبو بكر عن السرير حتى جلس عليه، فقال لأبي بكر: أخرِج مَنْ عِندَك، فقال أبوبكر إنما هم أهلك يا رسول الله، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إني قد أذن لي بالخروج»، فقال أبوبكر وهو يبكي من الفرح الصُحبة يا رسول الله؟ فقال رسول الله: نعم، فقال الصدّيق: اختر إحدى راحلتي هاتين، فقال رسول الله: بالثمن، فأخذ إحداهما وهي القصواء. واستأجر الصديق عبد الله بن أُرِيْقط كدليل- وهو مُشرك -، كان أمينا هادئا خِرِّيتا ماهرا بالطريق، ودفعا إليه الراحلتين اللتين أعدّهما الصديق رضي الله عنه للهجرة، فكانت عنده يرعاهما لميعادهما الذي واعداه بعد ثلاث.

وقد اشترك آل بيت أبي بكر في الإعداد للهجرة، تقول عائشة رضي الله عنها: فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهما سفرة(الزاد) ووضعناها في جراب، فلما أرادت أسماء ربط فم الجراب لم تجد شيئاً؛ فشقت نطاقها نصفين فربطت فم الجراب بنصفه، وانتطقت بالآخر؛ فلذلك سميت "بذات النطاقين" أو "ذات النطاق". وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما أخبر أبوبكر بالإذن له في الهجرة إلى بيته، وقال لعلي رضي الله عنه: نم على فراشي الليلة(للتمويه)، وتسَجّ بِبُرْدي هذا الحضرمي الأخضر فإنه لن يخلص إليك منهم شيء تكرهه. وقد أخبره بخروجه، وأمره أن يتخلف بعده بمكة؛ حتى يؤدي عن رسول الله الودائع، التي كانت عنده للناس، وكان رسول ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عنه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته عليه الصلاة والسلام، فهو عدو مأمون، ومكروه محبوب.

فلما كانت عتمة الليل اجتمع فتيان من قريش على بابه، وبيدهم السيوف المرهفة، يتطلّعون من ِصير(شقّ) الباب ويرصدونه يريدون ثيابه، فيرون عليّا وعليه بُرد رسول الله؛ فيضنونه إياه، فلم يزالوا قياما حتى الصباح. وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد خرج وهم جلوس على الباب، فأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذرُّها على رؤوسهم ويتلو صدر سورة يس، حتى بلغ قوله تعالى: ﴿**وجعلنا من بين أيديهم سُدا ومن خلفهم سُدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون**﴾[سورة يس، 9]. وقد أخذ الله على أبصارهم فلم يبصروا، ثم انصرف رسول الله لشأنه، وبقي المشركون ينتظرون النائم حتى يخرج فيفعلوا به ما اتفقوا عليه. فأتاهم آت فقال لهم: ماذا تنتظرون؟ قالوا: محمدا، قال: خيّبكم وخسرتم، لقد مرّ بكم وذرّ على رؤوسكم التراب، قالوا: والله ما أبصرناه. فلما أصبحوا قام عليّ رضي الله عنه عن الفراش؛ فسألوه عن رسول الله، فقال لا علم لي به. وقدم هؤلاء إلى بيت أبي بكر، فدقوا بابه، فخرجت أسماء إليهم، فسألها أبو جهل: أين أبوك يا ابنة أبي بكر؟ فقالت والله لا أعلم. فرفع أبو جهل – وكان فاحشا خبيثا – يده ولطم خدّها لطمة طرحت منها قرطها.

غادر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته يوم الخميس 27 صفر سنة 13 من البعثة، الموافق 13 سبتمبر سنة 622م، وأتى إلى بيت الصديق رضي الله عنه الذي يترقب وصوله في أية ساعة. وخرج رسول

الله وصاحبه وقد تزودا بالزاد والماء ليلاً من خَوْخَة(باب خلفي) في ظهر بيت أبي بكر حتى لا يراهما أحد، ولما ولى رسول الله ظهره مكة توجه إلى البيت الحرام، وقال: «والله إنّك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت». ثم سلكا طريقاً غير معهودة، فبدلاً من أن يسيرا نحو الشمال ذهبا إلى الجنوب باتّجاه اليمن، سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال حتى بلغ جبل يعرف بجبل ثور – جبل شامخ وعِر الطريق صعب المرتقى - حيث يوجد غار ثور. وكان رسول الله تلك يمشي على أطرف قدميه؛ كي يُخفي أثره حتى حفيت قدماه، فحمله أبوبكر وهو يشتدُّ به حتى أتى به الغار.

ولما وصل النبيّ صلى الله عليه وسلم وصاحبه إلى الغار، وأراد عليه الصلاة والسلام أن ينزل فيه، قال له الصديق: مكانك حتى أستبرئ لك، فإن كان به أذى نزل بي قبلك، ثم نزل فتحسّس الغار فلم يجد به شيئاً، فنزل رسول الله وقد بلغ منه الإعياء والتعب مبلغه فما أن دخلا حتى توسّد الرسول قدم أبي بكر ونام، وكان الصديق يأخذ من ثوبه ويسدُّ فم الأجحار؛ خشية أن يكون شيء من الهوام فتؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم, فبقي منها جحر فألقمه عقبه، وكانت به حيّة فلدغته، فمنعه مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم منه أن يتململ، أي فداءً يفدي بنفسه بعد هذا، ولكن الألم لمّا اشتد به وجعلت دموعه تنحدر، فسقطت على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما لك يا أبا بكر؟ فأخبره بما حدث، فتفل عليها رسول الله فبرئت بإذن الله تعالى.

وهما في الغار، أشار أبوبكر على ابنه عبد الله وهو غلام شاب ثقف(فطن) لقن(سريع الفهم)، أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره؛ ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر، وأمر عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره، ثم يريحهما عليهما، يأتيهما إذا أمسى في الغار، فاحتلبا وذبحا، وإذا غدا عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفّي عليه؛ فيصبح مع قريش بمكة كبائت. وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست ما يصلحهما.

**5- قريش تَجدُّ في البحث عن النبي عليه الصلاة والسلام:**

رُوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل هو وصاحبه الصديق الغار أمر الله سبحانه شجرة الرّاءة فنبتت على فم الغار فسترته، وانتشرت أغصانها على بابه، وألهم العنكبوت فنسجت على أغصان الشجرة، وألهم حمامتين وحشيّتين فعشّشتا وباضتا بين أغصان الشجرة في فم الغار، وقد كان لهذه الآيات الثلاث أثرها في تضليل المشركين وصدهم عن اقتحام الغار ودخوله وهكذا وقى الله نبيه وصاحبه بأضعف جنده.

ولما تبيّنت قريش إفلات النبي منهم جنّ جنونهم، وصاروا يهيمون على وجوههم طلباً له، وجعلوا لمن يأتي به حياً أو ميتاً مائة ناقة، وبعثوا القافة(قصاصو الأثر) في أثرة في كل وجه، منهم: كرز بن علقمة، وسراقة بن جعشم، فصاروا يتبعون الأثر حتى انتهوا إلى جبل ثور، ثم صعدوا الجبل حتى وقفوا على فم الغار، حيث شجرة الرّاءة حجبت عن أعين الكفار الغار، وهنا وقفوا متحيّرين! إذ لو كان دخل الغار فكيف لم يتهدّم نسيج العنكبوت، وكيف لم ينكسر بيض الحمام؟ ووقفوا متردّدين، أيدخلون الغار أم لا؟ حتى إن أحدهم همّ أن يدخل الغار فقال له الآخرون: إن هذا العنكبوت لمن قبل ميلاد محمد، فسمع رسول الله ما قال؛ فعرف أن الله عز وجل درأ عنه.

ورُوي أيضا عندما انتهى القافة إلى الغار؛ اشتد حزن أبوبكر على رسول الله، وقال: إن قُتلت فإنما أنا رجل واحد، وإن قُتِلت أنت هلكت الأمة، فعندها قال رسول الله: "لا تحزن إن الله معنا"؛ ألا ترى كيف قال: لا تحزن، ولم يقل لا تخف؛ لأن حزنه على رسول الله شغله عن خوفه على نفسه، وكان أرقّ الناس على رسول الله وأشفقهم عليه. وفي الصحيحين، أن أبا بكر الصديق قال: نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه أبصرنا فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما». وقد تحدّث القرآن الكريم على المؤامرة الخطيرة التي حاكتها ندوة قريش من أجل إحباط هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، وأشاد بحادث الغار وحديثه فقال:﴿**إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا**﴾[التوبة، 40].

**6- خروج النبي من الغار والطريق إلى يثرب:**

وكمُنا ثلاث ليالٍ في الغار، ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد، حتى خمدت عنهما نار الطلب، ويئس المشركون من إدراكهما، جاءهما الدليل عبد الله بن أريقط بالراحلتين صبح ثلاث، تصادف يوم الاثنين غرة ربيع الأول سنة 1هـ الموافق 16 سبتمبر عام 622م؛ فارتحلا، وأردف أبوبكر عامر بن فُهيرة، وسار الدليل أمامهما، فأخذ بهما طريق نحو الساحل، حتى وصل إلى طريق لم يألفه الناس، اتجه شمالا على مقربة من شاطئ البحر الأحمر، وسلك طريقا لم يسلكه أحد، وعين الله تكلؤهما، وتأييده يصحبُهما، وإسعاده يرحلُهما وينزلهما.

وفي الطريق إلى المدينة مرّ النبي عليه السلام بأن معبد، وقد رَوي حبيش أخي أم معبد قصتها مع النبي لما فيها من معجزة ظاهرة، فقال: فمرّوا بناحية قُدَيْد على أم معبد "عاتكة بنت خالد الخزاعية"، وكانت بَرزة، جلدة، ثم تسقي وتطعم من يمرّ بها، فسألوها: هل عندها لبن أو لحم يشترونه منها فلم يجدوا عندها شيئاً، وقالت: والله لو كان عندنا شيء ما منعناه عنكم. فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة في جانب الخيمة خلّفها الجهد عن الغنم، فسألها رسول الله: هل بها من لبنٍ؟ فقالت هي: أجهد من ذلك، فقال: أتأذنين لي أن أحلبها؟ فقالت: نعم بأبي وأمي إن رأيت حلباً فاحلبها، فدعا بالشاة فاعتقلها، ومسح ضرعها، فتفاجَّت، ودرّت، ودعا بإناءٍ ليشرب الرّهط، فحلب فيه حلبا كثيرا وسقى القوم حتى رووا، وسقى أم معبد حتى رويت، ثم شرب آخرهم وقال: ساقي القوم آخرهم شُرباً، ثم حلب فيه آخراً وغادره عندها، وفي رواية أنه قال لها أن ارفعي هذا لأبي معبد إذا جاءك، ثم ركبوا وذهبوا.

وتبعهما في الطريق سراقة بن مالك بن جعشم في اليوم الثالث من خروجهما طمعا في العطية التي رصدتها قريش. يقول سراقة: جاءنا رسُل كفار قريش، يجعلون في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، ديّة كل واحد منهما، من قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مُدلج، أقبل رجل منهم، حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال يا سراقة: إني قد رأيت آنفا ركبا ثلاث مروا عليّ، أراها محمدا وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانا وفلانا، انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي، وهي من وراء أكمة، فتحبسها علي، وأخذت رمحي، فخرجت به من ظهر البيت، حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها تقرب بي، حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها: أضرهم أم لا، فخرج الذي أكره.

وركبت فرسي وعصيت الأزلام، تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض، حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة، إذا لأثر يديها عثان(غبار) ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم، أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني ولم يسألاني، إلا أن قال: «أخفِ عنّا». فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم(جلد)، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

**7- أهل يثرب بين لهفة الانتظار وشوق الاستقبال لرسول الله:**

ولما بلغ المسلمين بالمدينة مخرج النبي عليه الصلاة والسلام من مكة هو وصاحبه الصديق رضي الله عنه، كانوا يخرجون كل غداة إلى الحرّة فينتظرونه حتى يردّهم حرّ الظهيرة، فعلوا ذلك مراراً، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أُطُم(الحصن) من آطامهم؛ لأمر ينظر إليه فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيّضين(عليهم ثياب بيض)، يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن صاح بأعلى صوته: يا بني قَيْلة – نسب إلى جدة الأنصار - هذا جدّكم الذي تنتظرون قد جاء؛ فخرجوا، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الثلاثة، فسُمعت الرّجّة والتكبير في بني عمرو بن عوف، وخرج المسلمون للقائه، فتلقوه وحيّوه بتحيّة النبوة.

وفي يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول سنة 13 من المبعث والسنة الأولى من الهجرة الموافق 23 سبتمبر 622م نزل رسول الله بقباء، في بني عمرو بن عوف من الأنصار، فنزل على كُلثوم بن الهدْم، ولبث عليه الصلاة والسلام في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة، وأسّس مسجد قباء وصلى فيه، وهو أول

مسجد أُسّس بعد النبوّة. وقد وصل إلى ذلك المكان علي رضي الله عنه، وقدم رسول الله بعد أن وصل من مكة، التي بقي فيها عدة أيام على طلب من النبي عليه الصلاة والسلام؛ لكي يؤدي الأمانات الموجودة في بيته عليه الصلاة والسلام إلى أهلها.

# وصول النبي إلى المدينة وأحداث السنة الأولى للهجرة

## 1- مجتمع يثرب قبل الهجرة النبوية:

عندما وصل رسول الله إلى المدينة، كان فيها مجموعات من السكان متباينة في عقيدتها، مختلفة في أهدافها، متفرقة في اجتماعاتها، كما كانت لديهم خلافات، بعضها موروث، وبعضها حديث موجود، وفيهم الوافد الجديد. هذه البطون العربية والأخرى اليهودية، كانوا منتشرين في ربوع الحرّتين: حرّة واقم وحرّة الوبرة، وإن كانت حرّة واقم أكثر عمرانا. وهناك:

أ- **الأوس والخزرج**(ابني قَيلة): يذكر بعض المؤرخين أن النبي داوود غزا أقدم من سكنوا المدينة، يقال لهم "صُعل وفالج" وأَسَر منهم طرفا، وأهلك طرفا آخر. وسكنها أيضا العماليق: وأول من زرع واتخذ بها النخيل، وعمّر بها الدور والآطام، واتخذ بها الضياع، وهم بنو عملاق بن ارفخشد بن سام بن نوح، وكان يدعى ملكهم الأرقم بن الأرقم، أرسل إليهم النبي موسى عليه السلام جيشا انتصر عليهم وقتلهم ولم يترك منهم أحدا، وأسكن مكانهم اليهود. ولما وقع سيل العرم في اليمن؛ نزلت الأوس والخزرج في يثرب وأقامتا بها، ووجدتا المال والآطام والنخيل في أيدي اليهود؛ فعقدتا معهم حلف جوار يأمن بعضهم بعضا، وبقوا دهرا كذلك حتى نقض اليهود عهد الحلف، فتغلبت يومئذ الأوس والخزرج وصارت الهيمنة للعرب وصار لهم الأموال والآطام، وهذا في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، ولا يبعد كثيرا عن الإسلام.

وبالرغم من صلة الرحم القريبة التي كانت بين الأوس والخزرج، فقد وقعت بينهما حروب هلك فيها خلق كثير. وأولها حرب "سمير" و"سميحة"، وحرب أخرى بسبب امرأة، وثالثة تسمى "السرارة" بسبب مقتل رجل من بني عمرو الأوسيين. ووقعت حروب أخرى لأسباب تافهة؛ كحرب فارع، وحرب حاطب، ويوم الربيع، ثم يوم بُعاث؛ وكان هذا آخر الأيام المشهورة التي وقعت بين الأوس والخزرج. ولليهود دورا خطيرا في إذكاء الحرب بين الطرفين؛ ليخرجوا من بينهم سالمين، وبقي الحيّان يتخاصمان حتى مجيء رسول الله إليهما، ونظرا لمساعدة أهل يثرب للرسول ومناصرتهم له وللمهاجرين، عُرف الأوس والخزرج بـ "الأنصار" في الإسلام، وصاروا يفتخرون بهذه التسمية، حتى غلبت عليهم، وصارت بمنزلة النسب.

ب- **اليهود:** لقد انحاز بعضهم إلى يثرب زمن الاضطهاد البابلي والروماني، وكانوا في الحقيقة عبرانيين، ولكن بعد استقرارهم في يثرب اصطبغوا بالصبغة العربية في الزي واللغة والحضارة، رغم تمسكهم بعصبيتهم الجنسية والدينية، وكانوا يحتقرون العرب احتقارا بالغا، وكانوا أصحاب دسائس ومؤامرات وعُتوّ وفساد؛ يلقون العداوة والشحناء بين القبائل العربية المجاورة، ويغرون بعضها على بعض بكيد خفي لم تكن تشعر به تلك القبائل، يزودونهم بقروض ثقيلة ربوية؛ حتى لا يُعسروا على الحرب لعسر النفقة، ويكسبوا من وراء هذا الخبث ثروات طائلة. وكانت بيثرب يومئذ ثلاث قبائل مشهورة: بني قينقاع ديارهم داخل المدينة، وبني النضير سكناهم بالضواحي، وهما حلفاء للخزرج. وبنو قريظة ديارهم بضواحي المدينة، وكانوا حلفاء للأوس. وهذه القبائل اليهودية قد ساهمت بأنفسها في حرب بُعاث.

ت- **المهاجرون**: وهم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة فرارا بدينهم، تاركين الأهل والولد والدور والمال، مجردين من كل شيء إلا من الإيمان، ومنهم من اصطحب معه زوجه وولده، ومنهم من تركهم، وقد عنى المهاجرين في مبدأ قدومهم شدّة ومرضا وغربة ووحشة، ولكنهم لم يلبثوا – بفضل إخوانهم الأنصار – أن تعودوا على جوّ المدينة، واندمجوا في المجتمع الجديد، وصارت وطنا لهم، وأبدلهم الله بالأهل أهلا، وبالمال مالا.

## 2- وصول المصطفى إلى يثرب والإقامة في بني النجار:

وبعد أن أسس رسول الله عليه الصلاة والسلام مسجد قباء، وهو أول مسجد أسس في الإسلام، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿**لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحقّ أن تقوم فيه فيه رجال يُحبّون أن يتطهَّروا والله يُحبّ المُطّهرين**﴾[التوبة، 108]. خرج رسول الله يوم الجمعة من قباء واتجه نحو يثرب، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فصلاّها في المسجد الذي في بطن الوادي (وادي رانوناء)، فكانت أول جمعة صلاّها في المدينة.

ثم أتاه عتبان بن مالك وعباس بن عبادة في رجال من بني سالم، فقالوا: يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعُدة والمنعة قال: «خلّوا سبيلها، فإنها مأمورة»؛ - لناقته القصواء - فخلّوا سبيلها، فانطلقت حتى وازت دار بني بياضة، تلقّاه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو في رجال من بني بياضة، فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا، إلى العدد والعُدة والمنعة، فقال: «خلّوا سبيلها، فإنها مأمورة»؛ فخلّوا سبيلها فانطلقت، حتى إذا مرّت بدار بني ساعدة اعترضه سعد بن عُبادة والمنذر بن عمرو في رجال بني ساعدة، فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا، إلى العدد والعُدة والمنعة، فقال: «خلّوا سبيلها، فإنها مأمورة»؛ فخلّوا سبيلها فانطلقت، حتى وازت دار بني الحارث بن الخزرج، اعترضه سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رواحة في رجال من بني بَلْحارث بن الخزرج، فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا، إلى العدد والعُدة والمنعة، فقال: خلّوا سبيلها فإنها مأمورة؛ فخلّوا سبيلها فانطلقت.

ومرّ الموكب بدار عدي بن النجار وهم أخوال جدّه، اعترضه سَليط بن قيس وأبو سليط بن أبي خارجة في رجال من عديّ بن النجار، فقالوا: يا رسول الله هلم إلى أخوالك، إلى العدد والعُدة والمنعة، فقال: «دَعوها فإنها مأمورة»؛ فخلّوا سبيلها فانطلقت، حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت على باب مسجده عليه الصلاة والسلام، وكان يومئذ مِربدا لغلامين يتيمين من بني مالك بن النجار في حجر معاذ بن عفراء، سهل وسهيل ابني عمرو، فلما بركت ورسول الله لم ينزل وثبت، فسارت غير بعيد ورسول الله عليه الصلاة والسلام واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مَبركها أوّل مرّة فبركت فيه، ثم تحلحلت وأزمّت وألقت بجِرانها (مقدم عنق البعير). فرح أهل يثرب بمقدم رسول الله، يقول البراء: فما رأيت الناس فرحوا بشيء كفرحهم به، حتى رأيت النساء والصبيان والإماء يقولون: الله أكبر جاء رسول، الله أكبر جاء رسول. يا عجبا لنقائض الحياة واختلاف الناس، إن الذي شهرت مكة سلاحها لتقتله، ولم ترجع عنه إلا مقهورة، استقبلته المدينة وهي جزلانة طروب.

ثم نزل رسول الله عليه الصلاة والسلام عنه ناقته؛ فتنازعته الملأ أيهم ينزل عليه، فقال: «إني أنزل على أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك»، وطبيعي أن لا يغضب أحد من أشراف المدينة؛ لأن أحق الناس به هم أقرباؤه وأهله، وبهذا التصرف الحكيم تخلص الرسول الكريم من هذا الموقف المحرج حقا. ثم سأل عليه الصلاة والسلام: أي دور أهلنا أقرب؟ فقال السيد الجليل أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري: أنا، فاحتمل رحلَ رسول الله إلى منزله، فقال رسول معتذرا بِلُفظ عن النزول عند غير بني النجار: "المرءُ مع رَحلِه"، وجاء أسعد بن زُرارة فأخذ بزمام راحلة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فكانت عنده.

وأوّل هدية دخلت على رسول الله وهو في منزل أبي أيوب، من عندِ أمّ زيد بن ثابت إذ يقول: دخلت بها قصعة مثرودة فيها خبز وسمن ولبن، فقلت أَرْسلت بهذه القصعة أمي، فقال: بارك الله فيك، ودعا أصحابه فأكلوا، فلم أَرِم(أبرح) الباب حتى جاءت قصعة سعد بن عُبادة ثريد وعُراق، ما كان من ليلة إلاّ وعلى باب رسول الله عليه الصلاة والسلام الثلاثة والأربعة يحملون الطعام يتناوبون ذلك، حتى تحوّل رسول من منزل أبي أيوب، وكان مقامه فيه سبعة أشهر. وسميت يثرب بالمدينة مُذ نزل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعن إقامة رسول الله في بيت أبي أيوب، يروى عن الأخير: أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل عليه، نزل في السفل من البيت، وأبو أيوب في العلو، قال: فانتبه أبو أيوب ليلة، فقال: نمشي فوق رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتنحّوا فباتوا في جانب، ثم قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم: «السفل أرفق»، ولا أعلو سقيفة أنت تحتها، فتحول النبيّ صلى الله عليه وسلم في العلو، وأبو أيوب في السفل. وكان يصنع للنبيّ صلى الله عليه وسلم طعاما، فإذا جيء به(الإناء) إليه سأل عن موضع أصابعه؛ فيتتبع موضع أصابعه للبركة، فصُنع مرة له طعاما فيه ثوم، فلما ردّ إليه سأل عن موضع أصابع النبي صلى الله عليه وسلم كعادته، فقيل له: لم يأكل، ففزع وصعد إليه، فقال: أحرام هو؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا ولكني أكرهه»، قال: فإني أكره ما تكره.

ومن منزل أبي أيوب بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة؛ ليستقدما أهله، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم، فقدما عليه بفاطمة وأمّ كلثوم ابنتي رسول الله، وسوْدة بنت زمعة زوجته، وأسامة بن زيد وأمه أمّ أيمن، وكانت رقيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قد هاجر بها زوجها عثمان بن عفّان قبل ذلك، وحبس أبو العاص بن الربيع امرأته زينب بنت رسول، وخرج عبد الله بن أبي بكر معهم بعيال أبي بكر فيهم عائشة، فقدموا المدينة فأنزلهم في بيت حارثة ابن النعمان. وفي الصحيح عن أسماء

رضي الله عنها: أنها حملت بعبد الله بن الزبير، قالت: فخرجت وأنا مُتِم فأتيت المدينة فنزلت بقباء فولدته بقباء، ثم أتيت به النبي صلى الله عليه وسلم فوضعته في حجره، ثم «دعا بتمرة فمضغها، ثم تفل في فيهِ، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم حنّكه بتمرة ثم دعا له، وبرَّك عليه وكان أول مولود ولد في الإسلام».

قدِم رسول الله إلى المدينة وهي أوبأ أرض من الحُمَّى(الملاريا)؛ فأصاب أصحابه منها بلاء وسُقم وصرف الله ذلك عن نبيّه، قالت عائشة: كان أبوبكر وعامر بن فهيرة وبلال في بيت واحد فأصابتهم الحمى؛ وإنهم ليهذون وما يعقلون من شدّتها، فذكرت ذلك لرسول، فقال:«اللّهم حبّب إلينا المدينة كما حبّبت إلينا مكّة أو أشد، اللهم بارك لنا في صاعها وفي مدّها، وصحِّحها لنا وانقل حُمَّاها إلى الجحفة»، وقد استجاب الله لنبيّه الدعاء، ورأى رؤيا تأوّلها صلى الله عليه وسلم خروج وباء المدينة، قال: «رأيت امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى قامت بمهيعة، فأولت أن وباءها نُقل إلى مهْيعة» وهي الجحفة. بحيث صار جوّ المدينة من أحسن الأجواء.

وفي أثناء مقام الرسول بدار أبي أيوب، قدم عليه أحد أحبار اليهود وعلمائهم وهو "عبد الله بن سلام"، وكان يعلم من كتبهم أوصاف النبي المبعوث في آخر زمان. وروى أنس بن مالك قصة إسلامه فقال: بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأتاه، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، وبعدما أجابه؛ قال: أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بُهت، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فجاءت اليهود بعد دعاهم النبيّ، ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أي رجل فيكم عبد الله بن سلام» قالوا أعلمنا، وابن أعلمنا، وأخيرنا، وابن أخيرنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أفرأيتم إن أسلم عبد الله» قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، فقالوا: شرّنا، وابن شرّنا، ووقعوا فيه. وقد أسلم بإسلامه أهل بيته، وعمّته خالدة بنت الحارث.

**3- بناء المسجد النبوي:**

وهو بدار أبي أيوب بُني المسجد النبوي، وقد بنوه في المكان الذي بركت به راحلته، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هذا إن شاء الله المنزل»، وقد كان في الأصل بستانا فتخرّب بعضه فبنيت فيه قبور، واتُّخذ بعضه مربدا لتجفيف التمر. وقد دعى النبيّ الغلامين فساومهما بالمربد، ليتخذه مسجدا، فقالا: لا، بل نَهبُه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله أن يقبله منهما هبة، وقال: "ثامنوني به"؛ حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير دفعها الصدّيق رضي الله عنه. ثم أمر رسول بالنخل فقطعت، وبالقبور فنُبشت، وبالخَرِب فسويت، وأمر باللبن فضُرب. ثم شُرع في بناء المسجد، وطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول وهو ينقل اللبن: "اللهم إن الأجر أجر الآخرة، فارحم الأنصار والمهاجره".

وأسسوا المسجد فجعلوا طوله ممّا يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، وفي هذين الجانبين مثل ذلك فهو مربع، وجعلوا الأساس قريبا من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة، وجعل قبلته إلى بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب: باب في مؤخره، وبابا يقال له: باب الرحمة، والباب الثالث الذي يدخل منه رسول الله، وهو الباب الذي يلي آل عثمان. وجعل طول الجدار بسْطةً، وعُمُده الجذوع، وسقفه جريد النخل. وبنى إلى جنبه بيوت أزواجه باللّبن، وسقفها بالجريد والجذوع، فلما فرغ من البناء؛ بنى بعائشة في البيت الذي بناه لها شرقي المسجد قبليه، وهو مكان حجرته اليوم، وجعل لسودة بنت زمعة بيتاً آخر. وقد ظل مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام، على هذا الشكل المذكور دون أي زيادة أو تغيير فيه مدة خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ثم زاد فيه عمر رضي الله عنه بعض التحسين، ولكنه بناه على بنائه في عهد النبي باللبن والجريد وأعاد عمده خشبا. ثم غيّره عثمان رضي الله عنه، فزاد فيه زيادة كبيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقَصَّة(الجص) وسقّفه بالساج.

وكان الناس إنما يجتمعون إلى الصلاة لتحيّن مواقيتها من غير دعوة، فهمّ رسول الله أن يجعل بوقا كبوق اليهود الذي يدعون به لصلاتهم، ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس فنُحِت ليَضربَ به للمسلمين في الصلاة، فبينما هم على ذلك رأُيَ "عبد الله بن زيد بن ثعلبة" النداء في منامه، يقول ابن زيد: فلما أصبحت، أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته، بما رأيت فقال: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقُم مع بلال وألق عليه ما رأيت، فليؤذن به، فإنه أندى صوتا منك» فقمت مع بلال، فجعلت ألقيه عليه، ويؤذن به، قال: فسمع ذلك

عمر بن الخطاب، وهو في بيته فخرج يجر رداءه، ويقول: والذي بعثك بالحق يا رسول الله، لقد رأيت مثل ما رأى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فلله الحمد».

**4- المؤاخاة بين المهاجرين مع الأنصار:**

ولما استقر المسلمون بالمدينة، آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلا، ويقال كانوا مائة، نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على المواساة، ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله عزّ وجل: ﴿**وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله**﴾[الأحزاب، 6]، فنسخت هذه الآية ما كان قبلها، ورد التوارث إلى الرّحِم دون عقد الأخوة. وقد قيل إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية، والثبت عند أهل العلم الأول.

وآخى يومئذ بين أبو بكر وخارجة بن زيد، وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك، وبين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت، وبين علي ابن أبي طالب وسهل بن حنيف، وبين عثمان بن مظعون وأبي الهيثم بن التَّيهان، وزيد بن حارثة وأُسيد بن الحُضير، وبين سعد بن وقاص وسعد بن معاذ، وبين عمار وحذيفة بن اليمان، وبين أبي سلمة وسعد بن خيثمة، وبين سلمان الفارسي وأبي الدرداء، وبين مصعب بن عمير وأبي أيوب.. وغيرهم. وقد اختلف العلماء في وقت هذه المؤاخاة، ورجّحه البعض بأنه كان بعد الهجرة بقليل؛ لأن الحال كانت تدعو إلى الإسراع بهذا الإخاء جمعا للشمل، وتوثيقا للعرى. وفي تلك الأشهر والمسجد يُبنى، توفي أبو أمامة أسعد بن زرارة نقيب بني النجار أخذته الذبحة أو الشهقة؛ فوجد (حزن) عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدا شديدا لفراقه، وقد كان كواه من ذبحة نزلت به. لما مات اجتمعت بنو النجار إلى رسول الله، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا رجلا مكانه نقيبا علينا، فقال رسول الله: أنتم أخوالي وأنا فيكم، وأنا نقيبكم؛ وكره رسول أن يخصّ بها بعضهم دون بعض؛ فكانت من مفاخرهم.

**5- موادعة النبي اليهود:**

وأما الأساس الثالث في بناء المجتمع الجديد، هو ترسيم العلاقات أو صلة الأمة بالأجانب عنها، الذين لا يدينون بدينها، فإن رسول الله قد سنّ قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في عالم مليء بالتعصب والتغالي، فوادع يهود المدينة؛ لتكون طيبة مسلمها وكافرها يدا واحدة أمام الأعداء من الخارج، إذ أن قريشا ربما تفكر في القيام بعمل ضد المدينة، ومن ناحية ثانية حتى يمكن تطبيق النظام داخل هذه المدينة المنبعثة من جديد. وكتب بين المهاجرين والأنصار كتابا وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم. وأهم بنود ما تضمنته تلك الوثيقة التاريخية، هو الآتي:

- المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة.
- إن المؤمنين المتقين يتكاتفون دون ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بينهم، وأنّ أيديهم عليهم جميعا ولو كان ولد أحدهم.
- لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن..
- لا يحل لمؤمن أقرّ بما في الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا(مجرما) ولا يؤويه، وإن من نصره وآواه؛ فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة.
- اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
- لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.
- إن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.
- كل ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده؛ فإن مردّه إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله.
- من خرج من المدينة آمن ومن قعد آمن، إلا من ظلم وأثم.
- إن الله أصدق ما في الصحيفة وأبره، وإن الله جار لمن برّ واتقى.

وبمقتضى هذه الوثيقة أصبحت المدينة حرما آمنا، وأصبح كلّ من المسلمين واليهود في أمن من جانب الآخر، وأصبح اليهود ملزمين بمعونة المسلمين إذا ما دهم المدينة عدو، وبعدم مشاركة المشركين ومناصرتهم ضدهم. ولقد وفّى النبيّ والمسلمون بكل الالتزامات التي أوجبتها هذه الوثيقة عليهم، على حين لم

يفِ بما فيها اليهود، ولما عادوا إلى طبيعتهم من الدس والخداع؛ فحاولوا الوقيعة بين الأوس والخزرج، وهمّوا بقتل النبي، واستباحوا حرمات المسلمين؛ فكانت عاقبة أمرهم ذلا.

# النشاط العسكري والسياسي وأحداث السيرة قبل غزوة بدر

## 1- مشروعية قتال الكفار والمشركين:

كان القتال محرّما على المسلمين قبل الهجرة، ولمّا استقرّ رسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وأيّده الله بنصره؛ وبعباده المؤمنين من الأنصار، وألّف بين قلوبهم بعد العداوة والإحَنِ التي كانت بينهم، فمنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه وقدّموا محبّته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، رمتهُمُ العربُ واليهود عن ساق واحدة، وشمّروا عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كلّ جانب، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والصفح حتى قويت الشوكة، واشتد الجناح؛ فأُذن لهم بالقتال، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى:﴿**أُذن للّذين يُقاتلون بأنّهم ظُلموا وإنّ الله على نصرهم لقدير**﴾[الحج، 37]، وهي أوّل آية نزلت في القتال.

ثم فُرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يُقاتلهم، وكانت هذه هي المرحلة الثانية في تشريع الجهاد، قال تعالى: ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يُقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يُحبّ المعتدين**﴾[البقرة، 189]، والآية الكريمة تنهى عن الاعتداء بقتل النساء والشيوخ والأطفال، ومن لا يرفع السلاح بوجه المسلمين. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمّر أميرا على جيش، أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا».

وفي الحالة السابقة، لم يكن الرسول يتعرض إلا لقريش دون سائر العرب. ولما تمالأ على المسلمين غير أهل مكة من مشركي العرب واتّحدوا عليهم مع الأعداء، أمر الله بقتال المشركين كافة بقوله: ﴿**وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة**﴾[التوبة، 36]؛ وبذلك صار الجهاد عاما لكلّ من ليس له كتاب من الوثنيين، وهذا مصداق قوله عليه الصلاة والسلام: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحِسابهم على الله». ولما وجد المسلمون من اليهود خيانة للعهود، حيث إنهم ساعدوا المشركين في حروبهم، أمر الله بقتالهم بقوله: ﴿**وإمّا تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إنّ الله لا يحبّ الخائنين**﴾[الأنفال، 59]. وقتالهم واجب حتى يُدينوا أو ويعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون؛ ليأمن المسلمون جانبهم.

## 2- الغزوات والسرايا الاستطلاعية:

كانت الفترة التي تلت هجرة الرسول حتى معركة بدر حوالي تسعة عشر شهرا، وفي أثناء هذه الفترة لم يحدث أيّ عِراك دامي بين مكة والمدينة، والنشاط العسكري فيها أشبه بدوريات استطلاعية قام بها المسلمون للاستكشاف والتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة والمسالك المؤدية إلى مكة، واختبار مدى قوة القبائل المحيطة بالمنطقة، ومحاولة كسب بعضها بالمحالفة والموادعة، كما كان الهدف منها إشعار المشركين واليهود بقوة المسلمين على صدّ أي اعتداء يتعرضون له. واستهدفت طلائع حركات الجهاد هذه من سرايا وغزوات والتي اتجهت أغلبها غربي المدينة ثلاثة أمور:

- تهديد طريق تجارة قريش إلى الشام، وهي ضربة خطيرة لاقتصاد مكة التجاري.
- عقد المحالفات والموادعات مع القبائل التي تسكن المنطقة؛ لضمان تعاونها أو حيادها على الأقل في الصراع بين المسلمين وقريش.
- إبراز قوة المسلمين في المدينة أمام اليهود وبقايا المشركين، فالمسلمون صاروا لا يقتصرون على السيادة في المدينة، بل يتحركون لفرض سيطرتهم على أطرافها وما حولها من القبائل.

وقبل التعرف على تلك الدوريات أو السرايا والغزوات، الأولى والأحرى أن نفرّق بين مفهوم ومدلول اللفظين، السريّة، والغزوة:

### أ- الغزوة والسَرِيّة والبعث لغة واصطلاحا:

أ-1- **الغزوة والسَرِيّة والبعث لغة**: الغزوة لغة، المرّة من الغزوِ، والاسم "الغَزَاة"، وجمع الغازي غزاة وغُزَّى وغِزِيٌ وغُزَّاء. والمغزاة، موضع الغزو. وغزاه غزوا، أراده وطلبه وقصده. وأما السريّة لغة: سميت سريّة؛ لأنها تسري ليلا في خيفة لئلا ينذر العدوّ فيحذروا ويمتنعوا، وهي التي تخرج ليلا. وقد فرّق بعض أهل السير بين السريّة والبعث، طبقا للمدلول اللغوي، فالبعث في اللغة: يقال بعثه يَبعثه بعثا: أرسله وحده، وبعث به أرسله مع غيره، والبعث الإرسال؛ بعث الجند في الغزو، وقولهم: كنت في بعث فلان أي في جيشه الذي بعث، والبعوث الجيوش.

أ-2- **الغزوة والسَرِيّة والبعث اصطلاحا**: جمع الزرقاني تلك الألفاظ في تعريف واحد فقال: كل عسكر حضره النبيّ عليه الصلاة والسلام يسمى غزوة، وما لم يحضره بل أرسل بعضا من أصحابه إلى العدو يسمى سريّة أو بعثا. وقد تباينت أقوال العلماء في العدد الذي يمكن إطلاق مسمى السريّة عليه، فذكر أحدهم أن السريّة يبلغ أقصاها أربعمائة، وذكر آخر أن السريّة ما بين خمسة أنفس إلى مائة، وجاء عند ثالث أنها من مائة إلى خمسمائة. والقول الجامع في ذلك؛ أن السريّة لا يتجاوز عددها أكثر من ثلاثة آلاف رجل، كما في سريّة مؤتة، وليس في سيرة النبي سريّة بلغ عددها أكثر من ذلك، وكما أنه ليس في سيرة النبيّ حدّ أدنى للسريّة، فقد تكون السريّة من رجل واحد، فقد بعث رسول الله عبد الله بن مسعود وخبابا سرية، وبعث دية سريّة وحده.

ذكر أصحاب السير عن موسى بن عقبة، أن عدد مغازي رسول الله التي غزا بنفسه سبعاً وعشرين غزوة، وكانت سراياه التي بعث بها سبعاً وأربعين سريّة، وكان ما قاتل فيه من المغازي تسع غزوات: بدر وأُحد والمُرَيْسع والخندق وقريظة وخَيبر وفتح مكة وحُنين والطّائف، وهذا ما اجتمع لنا عليه كما قال صاحب الطبقات الكبرى.

ب- **سريّة حمزة بن عبد المطلب**: وتسمى سرية سِيف البحر، وقعت في رمضان السنة الأولى من الهجرة الموافق مارس سنة 623م، أمّر رسول الله عليها حمزة بن عبد المطلب وعقد له أول لواء أبيض حمله أبو مَرْثَد كَنّاز بن الحُصين الغَنَوي حليف حمزة بن عبد المطلب، وبعثه في ثلاثين راكبا من المهاجرين، ولم يبعث رسول الله أحدا من الأنصار مَبعثا حتى غزا بدراً، وذلك أنهم شرطوا له أنهم يمنعونه في دارهم وهو الثبت عند صاحب الطبقات. وقد خرجت السريّة بقيادة حمزة تعترض عيرا لقريش قد جاءت من الشام تريد مكة، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة راكبا، فبلغوا سِيف البحر(يعني ساحله) من ناحية العِيص، فالتقوا حتى اصطفّوا للقتال، فمشى مَجْدي بن عمرو الجُهني وكان حليفا للفريقين إلى هؤلاء مرّة وإلى هؤلاء مرّة حتى حَجَزَ بينهم ولم يقتتلوا، فتوجّه أبو جهل في أصحابه وعِيره إلى مكة، وانصرف حمزة بن عبد المطلب في أصحابه إلى المدينة، وشكر عليه الصلاة والسلام مجديا على عمله؛ لما كان من قلّة عدد المسلمين وكثرة عدوّهم.

ت- **سريّة عبيدة بن الحارث**: تسمى سريّة رابغ، عقد فيها رسول الله اللواء لابن عم أبيه عبيدة بن الحارث بن المطلب في شهر شوال السنة الأولى للهجرة الموافق أفريل سنة 623م، وحمله(اللواءً الأبيض) مِسطَح بن أُثاثة بن المطّلب. وأمر النبيّ عبيدة بالمسير إلى بطن رابغ في ستّين أو ثمانين راكبا؛ ليعترض سبيل قافلة لقريش تتألف من مائتي راكب، فبلغ ثَنيّة المُرّة وهي في ناحية الجحفة، والتقوا هم والمشركون على ماء يقال له أحياء، وكان بينهم الرمي دون المسايفة، وقد رمى يومئذ سعد بن أبي وقاص بسهم، فكان أوّل سهم رُمي في سبيل الله، ولم تستمر المناوشة، إذ انهزم المشركون على الرغم من كثرتهم، وخافوا أن يكون المسلمون قد نصبوا لهم كمينا. وكانت عير قريش بإمرة أبو سفيان بن حرب، وفرّ رجلان من المسلمين كانا مع المشركين وهم: المقداد بن عمرو، وعتبة بن غزوان والتحقا بالمسلمين.

ث- **سريّة سعد بن أبي وقاص**: وتسمى سريّة الخرّار، وفيها بعث رسول الله سعد بن أبي وقاص إلى الخرّار، وعقد له لواءً أبيض، وحمله المقداد بن عمرو البهراني، في ذي القَعْدة من السنة الأولى للهجرة الموافق ماي 623م، خرج في عشرين راجلا، يعترضون عيرا لقريش، وكان رسول قد عَهِد إلى سعد ألاّ يجاوز الخرّار، فكانوا يكمنون نهارا، ويسيرون ليلا، حتى صبّحوا الخرّار صُبح خامسة، فوجدوا العير قد مرّت بالأمس.

ج- **غزوة الأبواء أو ودّان**: وهما مكانان متقاربان بينهما نحو ستة أميال، وهي أول غزوة غزاها النبيّ عليه الصلاة والسلام بنفسه، وكانت في صفر السنة الثانية للهجرة الموافق أوت 623م، وحمل لواءه حمزة بن

عبد المطلب، وكان أبيض، واستخلف على المدينة سعد بن عبادة، وخرج في المهاجرين خاصة يعترض عيرا لقريش، فلم يلق كيداً، وفي هذه الغزوة وادع مخشيَّ بن عمرو الضَّمْري وكان سيّد بني ضَمرة من بني كنانة في زمانه، على أن لا يغزو بني ضمرة ولا يغزوه، ولا يكثِّروا عليه جمعا، ولا يعينوا عليه عدواً، وكتب بينهم كتابا، ثم انصرف رسول الله إلى المدينة، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة.

ح- **غزوة بُواط**: أقام رسول الله في المدينة حتى شهر ربيع الأول من السنة 2هـ الموافق سبتمبر 623م حيث خرج غازيا حينما بلغه أن عيرا لقريش آيبة من الشام، فيها أمية بن خلف ومائة من قريش وألفان وخمسمائة بعير، فخرج إليها في مائتين من أصحابه، بعد أن استخلف على المدينة سعد بن معاذ، وكان يحمل لواءه سعد بن أبي وقاص، وبلغ بواطا من ناحية رضوى، ولكن أمية كان قد نمي إليه خبر خروج المسلمين للقائهم؛ فأسرع بالقافلة ونجا بها.

خ- **غزوة سَفَوان:** في شهر ربيع الأول السنة 2هـ الموافق سبتمبر 623م، وهي غزوة غزاها النبيّ لطَلَبِ كُرْز بن جابر الفِهري، وحمل لواءه علي بن أبي طالب، وكان قد استخلف على المدينة زيد بن حارثة، وكان كُرْز بن جابر الفِهري قد أغار على سرْح المدينة فاستاقه، وكان يرعى بالجمّاء(جبل ناحية العقيق، بينه وبين المدينة ثلاثة أميال)، فطلبه رسول الله، حتى بلغ واديًا يقال له سَفَوان من ناحية بدر، وفاته كُرز بن جابر؛ فرجع رسول الله إلى المدينة، وقد سمّاها البعض غزوة بدر الأولى أو الصغرى.

د- **غزوة ذي العُشَيْرة(أو العُسيرة)**: وفي جمادى الأولى وجمادى الثانية من السنة 2هـ الموافق نوفمبر ديسمبر 623م، خرج رسول الله في غزوة، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب، وكان لواء أبيض، واستخلف على المدينة أبا سَلمة بن عبد الأسد المخزومي، وكان في خمسين ومائة، ويقال مائتين من المهاجرين، ولم يُكره أحدا على الخروج، وخرجوا في ثلاثين بعيرا يَعْتقِبونها، يعترضون عيرا لقريش ذاهبة إلى الشام، وقد كان جاءه الخبر بفصولها من مكة فيها أموال لقريش، فبلغ ذا العُشيرة أو العُشيراء، وقيل العُسيرة، وهي ناحية ينبع، فوجد العير قد فاتته بأيام، وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام؛ فصارت سببا لغزوة بدر الكبرى. وفي هذه الغزوة، وادع بني مُدْلِج وحلفائهم من بني ضَمرَة، وفيها كنّى رسول الله عليّا أبا تراب.

ذ- **سرية نخلة**: وفي رجب من السنة 2هـ الموافق جانفي سنة 624م، بعث رسول سرية بقيادة عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة ومعه ثمانية من المهاجرين، كل اثنين يعتقبان بعيراً إلى بطن نخلة، وهو بستان ابن عامر بالقرب من مكة. وقد أعطى النبي لعبد الله كتابا وقال له: «لا تفتحه إلا بعد يومين، فإذا فتحته فامض لما أمرتك به، ولا تستكره أحدا من أصحابك»، فلما سار يومين فتحه فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصّد بها قريشا وتعلَّم من أخبارهم» فلما قرأ الكتاب قال: سمعا وطاعة، وأخبر أصحابه بما في الكتاب، وقد نهاني أن استكره أحدا منكم، فمضى ومضوا معه ولم يتخلّف منهم أحد.

ولما كان الركب في الطريق، أضلّ سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما كانا يتعقبانه، فتخلفا في طلبه، وبعُدَ أمير السريّة حتى نزا بنخلة، فمرّت به عير لقريش تحمل زبيبا وأَدَما وتجارة فيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان مولى بن المغيرة، فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام، فإن قاتلناهم، انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم، ثم أجمعوا على ملاقاتهم، فرمى أحدهم عمر بن الحضرمي فقتله، وأسروا عثمان والحكم، وأفلت نوفل، ثم قدموا بالعير والأسيرين؛ فأنكر رسول الله عليهم ما فعلوه، واشتدّ تعنُّت قريش وإنكارهم لذلك، وقالوا: قد أحلّ محمد الشهر الحرام، واشتد على المسلمين ذلك، حتى نزل قوله تعالى: ﴿**يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير وصدّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل**﴾[البقرة، 215]، فكان في هذا إعذار من الله لأصحاب السريّة، فسُري عنهم وعن المسلمين ما كانوا فيه من الكرب والغمة. قال ابن هشام: وهي أول غنيمة غنمها المسلمون، وعمرو بن الحضرمي أول من قتل المسلمون، وعثمان والحكم أول من أسر المسلمون.

3- **أحداث وتشريعات السنة الثانية للهجرة**:

أ- **تحويل القبلة إلى الكعبة**: لما هاجر النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة أمره بالتوجه إلى بيت المقدس؛ استمرارا لما كان عليه الحال بمكة قبل الهجرة، ولكن اليهود اتخذوا من توجه النبي إلى بيت المقدس ذريعة للطعن فيه فقالوا: يخالفنا ويتبع قبلتنا؟ فآلم النبيّ ذلك، وكان يحبّ أن تكون قبلته هي الكعبة قبلة أبيه إبراهيم، ومفخرة آبائه وأجداده، فكان كثيرا ما يرفع بصره إلى السماء داعيا وراجيا، وقد مكث على استقبال بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا، ثم أجابه الله على سؤاله، وحقّق أمنيته فوجّهه إلى الكعبة البيت الحرام، قال تعالى:

﴿**قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولّينك قِبلة ترضاها، فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره**﴾[البقرة، 143]. فقال السفهاء من الناس وهم اليهود ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، فأنزل عز وجل: ﴿**قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾[البقرة، 141]. وما بعدها من الآيات، فأنشأت اليهود تقول: قد اشتاق الرجل إلى بلده، وبيت أبيه، وما لهم، حتى تركوا قبلتهم يصلون مرة وجها ومرة وجها آخر. وقالوا أيضا: وماله خالف قبلة الأنبياء قبله، ولو كان نبيّا، لكان يصلي إلى قبله الأنبياء. وأما المشركون فقالوا: كما رجع إلى قبلتِنا، يُوشك أن يرجع إلى ديننا، وما رجع إليها إلا أنه الحق. وأما المسلمون فقالوا: سمعنا وأطعنا.

وتم ذلك يوم الاثنين نصف رجب من السنة 2هـ وبه جزم جمهور العلماء، والصلاة التي وقع فيها التحويل، كانت صلاة العصر. وصلى مع رسول الله رجل، فخرج بعدما صلّى فمرّ على قوم من الأنصار وهم ركوع في صلاة العصر نحو بيت المقدس، فقال لهم وهم ركوع: أشهد أن رسول الله قد وُجِّه نحو الكعبة، فاستداروا وهم ركوع وتوجهوا نحو الكعبة. وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر(الصبح) من اليوم الثاني؛ إذ جاءهم آت، فقال: إن رسول الله قد أُنزل عليه الليلة قرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام.

وكان في المسجد موضع مضلّل يأوي إليه ضعفاء المسلمين، يسمّى الصُفّة، وكان أهله يسمّون "أهل الصفة"، كانت القبلة قبل أن تُحول شمال المسجد، فلما حوّلت بقي حائط القبلة الأولي مكان أهل الصُفّة؛ وفي مؤخر المسجد ينزل أولئك الغرباء، ممن لا مأوى لهم، ولا أهل وكانوا يكثرون فيه ويقلّون بحسب من يتزوّج منهم، أو يموت أو يسافر، كان أبو هريرة رضي الله عنه من نزلاء الصُفّة، ويروى عنه أنه قال: ألله الذي لا إله إلا هو، إني كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قَعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون منه(المسجد)، فمرّ بي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم، فتبسّم حين رآني، وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال: «يا أبا هر» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «الْحق» ومضى فتبعته، فدخل، فاستأذن، فأذن لي، فدخل، فوجد لبنا في قدح، فقال: «من أين هذا اللبن؟» قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة، قال: «أبا هر» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي» قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها. وكان عليه السلام يدعوهم بالليل فيفرّقهم على أصحابه، ويتعشى طائفة معه.

ب- **تشريع فريضة الصيام وسنة الأضحية**: في شعبان من السنة الثانية للهجرة فرض الله ركنا من أركان الدين، وهو صيام رمضان، وكان النبي لما قدم المدينة يصوم يوم عاشوراء لمّا وجد اليهود يصومونه، جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانوا يصومون عاشوراء قبل أن يفرض رمضان، فلما فرض الله رمضان، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من شاء أن يصومه فليصمه، ومن شاء أن يتركه فليتركه».

ورُوي عن معاذ بن جبل من حديث في أحوال الصلاة والصوم قال: فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ثمانية عشر شهرا، من ربيع الأول إلى شعبان، وصام يوم عاشوراء، ثم إن الله فرض عليه الصيام، فأنزل الله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم**﴾[البقرة، 182] إلى هذه الآية: ﴿**وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين**﴾[البقرة، 183]، قال: فكان من شاء صام، ومن شاء أطعم مسكينا، فأجزأ ذلك عنه قال: ثم إن الله عز وجل أنزل الآية الأخرى: ﴿**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن**﴾ إلى قوله: ﴿**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**﴾[البقرة: 184] قال: فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، ورخص فيه للمريض والمسافر وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام. وقال: وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا. وكان عمر قد

أصاب من النساء من جارية أو من حرة بعد ما نام، وأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له فأنزل الله عز وجل: ﴿**أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم**﴾[البقرة، 186]. فخفّف الله عن الأمة، ورحمها، وأباح لها هذه الثلاثة(الأكل والشرب والجماع) إلى طلوع الفجر.

وبهذا استقر تشريع الصيام على هذا اليسر ورفع الحرج، وتأكد وجوبه بالسنة القولية والعملية المتواترة عن رسول الله وأصحابه الكرام. وأمر رسول الله في هذه السنة بزكاة الفطر، وذلك قبل أن تفرض الزكاة في الأموال، وأن تُخرج عن الصغير الكبير العبد والحر والذكر والأنثى. وصلى في هذه السنة 2هـ صلاة عيد يوم الأضحى وأمر بالأضحية.

ت- **ذكر المنبر وحنين الجذع**: روي عن أنس بن مالك، قال: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخطب يوم الجمعة، ويسند ظهره إلى خشبة، فلما كثر الناس قال: «ابنوا لي منبرا»، فبنوا له منبرا، إنما كان عتبتين، فتحول من الخشبة إلى المنبر، فحنّت والله الخشبة حنين الواله، فقال أنس: أنا والله في المسجد أسمع ذلك، والله ما زالت تحنّ حتى نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر، ومشى إليها فاحتضنها فسكنت، فكان الحسن إذا حدّث بذلك بكى الحسن، وقال: «يا معشر المسلمين، الخشبة تحنّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شوقا إليه، أفليس الرجال الذين يرجون لقاءه أحق أن يشتاقوا إليه؟».

وفي حديث لجابر بن عبد الله رُوي عنه في الصحيح، أنه: «كان جذع يقوم إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم، فلما وضع له المنبر، سمعنا للجذع مثل أصوات العشار(النوق الحوامل) حتى نزل النبيّ صلى الله عليه وسلم، فوضع يده عليه». بحيث ارتجّ المسجد بخواره، وكثر بكاء النّاس لما رأو ذلك به، قال النبيّ عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة»؛ حزنا على رسول الله، فأمر به ودفن تحت المنبر.

## غزوة بدر العظمى، يوم الفرقان يوم التقى الجمعان

لقد كانت غزوة بدر أعظم غزوات الإسلام، إذ منها كان ظهوره، وبعد وقوعها أشرق على الآفاق، أعزّ الله من حضرها من المسلمين والملائكة، أخزى الشيطان، وأذلّ الله بوقوعها الكفّار؛ بقتل صناديدهم وأسرهم. وسميت العظمى والثانية وبدر الفرقان وبدر القتال؛ لوقوعه فيها دون الأولى وقبل الآخرة.

### 1- أسباب الغزوة وخروج الفريقان:

أ- **خروج رسول الله إلى العير**: ظل المسلمون يترقبون عودة قافلة قريش التي فلتت منهم في غزوة ذي العشيرة، وقد بعث رسول الله ρ دورية مكونة من طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد، وأمرهما بالاتجاه نحو الشمال يتحسّسان خبر العير، فوصلت هذه الدورية إلى الحوراء على البحر الأحمر، وهناك مكثت حتى مرّ بها أبو سفيان عائدا من الشام بالقافلة، وعند ذلك أسرع طلحة وسعيد وأخبرا رسول الله ρ بذلك، ويقال إن الرسول لم ينتظر قدوم الرسولين من مهمتهما، وقرر الخروج إلى طريق الشام؛ خشية أن تفوته العير في إيابها. ندب الرسول ρ المسلمين للعير، وقال لهم: «هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعلّ الله يُنْفِلُكُموها»، ولم يستنفر الرسول صلى الله عليه وسلم كل النّاس، بل طلب أن يخرج معها من كان ظهره حاضرا؛ لذا لم يُلم أحدا تخلف عنها؛ لأنهم ما خرجوا على قتال، وإنّما خرجوا للعير.

خرج رسول الله يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان وقيل ثمانية، واستخلف النبي عليه الصلاة والسلام عبد الله بن أم مكتوم على الصلاة في المدينة، ردّ الرسول ρ أبا لبابة وأمَّره على المدينة، وردّ عاصم بن عدي أيضا واستخلفه على قباء والعالية، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير، وكان أبيض، وبين يدي رسول الله رايتان سوداوان: إحداهما مع على بن أبي طالب، والثانية مع سعد بن معاذ. وقد بلغ تعداد الجيش الإسلامي ما بين 313 و 317 رجلاً، منهم ما بين 82 إلى 86 من المهاجرين، و61 من الأوس و170 من الخزرج، معهم فَرَسان أحدهما للزبير بن العوام، والثاني للمقداد بن الأسود، وسبعون بعيراً، يتعقب الرّجلان والثلاثة والأربعة على البعير الواحد. وكان أبو لبابة – قبل رجوعه - وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعندما جاء دوره في المشي، قالا له: نحن نمشي عنك، فقال لهما: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»، وأصبح مكانه في زمالة الرسول صلى الله عليه وسلم على البعير مرثد بن أبي مرثد الغنوي.

ب- **أبو سفيان واستنفار قريش**: كان أبو سفيان على حذر أن تقع العير في قبضة المسلمين، فأخذ يتحسّس الأخبار ويتسمّعها عندما دنا من الحجاز، حتى أصاب خبرا من بعض الركبان أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك وخاف العاقبة، إذ لم يكن معه من قريش في حراسة العير إلا ثلاثون أو أربعون رجلا، وما يغني هذا العدد عن اللقاء. وعندما اقترب من بدر لقي مجدي بن عمرو وسأله عن جيش الرسول صلى الله عليه وسلم، فأفاده مجدي بأنه رأى راكبين أناخا إلى تل، ثم استقيا في شن لهما، ثم انطلقا، فبادر أبو سفيان إلى مناخيهما، فأخذ من أبعار بعيريهما، ففتّه، فعرف منه أنه من علائف المدينة، فأسرع تاركاً الطريق الرئيس الذي يمرّ على يسار بدر، واتّجه إلى طريق الساحل غرباً. وحينما تأكّد خروج النبيّ لاعتراضه؛ استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري بعشرين مثقالا، وأرسله إلى مكة يستنجد بقريش، وجاء ضمضم مسرعاً إلى مكة، وعندما دخلها وقف على بعيره وقد جدّع أنفه، وحوّل رحله، وشق قميصه، وهو يصيح: "يا معشر قريش، اللّطيمة اللّطيمة, أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث.

وقبل مقدم ضمضم بخبر أبي سفيان بثلاث ليال، رأت عاتكة بنت عبد المطلب فيما يرى النائم، رؤيا أفزعتها، فبعثت إلى أخيها العباس، فقالت له: يا أخي، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفضعتني، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر وصيبة، فاكتم عنّي ما أحدّثك به، وقصت علية الرؤيا فقالت: رجلاً أقبل على بعير له، فوقف بالأبطح، فقال: يا آلَ غُدَر أنفروا لمصارعكم في ثلاث، ثم مثل به بعيره على ظهر الكعبة، فصرخ بمثلها، ومَثل به بعيره على رأس جبل أبي قبيس، فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها من رأس الجبل، فأقبلت تهوي حتى ارفضّت، فما بقيت دار ولا بنية إلا ودخل فيها بعضها. لكن القصة فشت في مكة، وعلّق

أبو جهل في شأنها وهو يخاطب العباس: يا بني عبد المطلب، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم، فصدّق الله رؤيا عاتكة بعد ثلاث، بمجيء ضمضم يستنفر قريشاً لصدّ المسلمين عن عيرهم.

فتجهز الناس سراعا، وخرجت قريش على بكرة أبيها لحماية عيرها ورجالها، ولم يتخلف من أشرافهم سوى أبي لهب، فإنه أرسل مكانه العاص بن هشام مقابل ديْن كان عليه، مقداره أربعة آلاف درهم، و لم يتخلف من بطون قريش سوى بني عدي. وبلغ عددهم في بداية مسيرهم نحو ألف وثلاثمائة محارب، معهم مائة فرس وستمائة درع وسبعمائة جمل، بقيادة أبي جهل. وعندما خشوا أن تغدر بهم بنو بكر لعدواتها معهم، كادوا أن يرجعوا عمّا أرادوا، فتبدّى لهم إبليس في صورة سُراقة بن مالك المدلجي سيّد بني كنانة، وقال لهم: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فخرجوا من ديارهم كما قال تعالى: ﴿**بطرا ورئاء الناس، ويصدون عن سبيل الله**﴾[الأنفال، 48].

ثم أرسل أبو سفيان قيس بن امرىء القيس إلى جيش قريش، وهم بالجحفة، يخبرهم فيها بنجاته وأنه أحرز العير، ويطلب منهم الرجوع إلى مكة. وهمّ جيش مكة بالرجوع، ولكن أبا جهل رفض ذلك، قائلا: "والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً، فنقيم بها ثلاثا، فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا"؛ فأطاعه القوم ما عدا الأخنس بن شريق، حيث رجع بقومه بني زهرة، وطالب بن أبي طالب؛ لأن قريشاً في حوارها معه، اتهمت بني هاشم بأن هواهم مع محمد صلى الله عليه وسلم. وساروا – جيش مكة - حتى نزلوا قريباً من بدر، وراء كثيب العقنقل يقع بالعدوة القصوى، على حدود وادي بدر، في أرض سهلة ليّنة.

ت- **مسير المسلمين إلى بدر**: خرج النبيّ مع أصحابه على نقب المدينة، ثم على العقيق، ثم على ذي الحليفة، إلى أن وصل فج الروحاء، حتى إذا كان في عرق الظبية، وفيها لحق به بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزّغباء، فأخبراه خبر العير، ثم إلى الصفراء، ومنها إلى وادي ذفران، حيث أتاه خبر نَفْرة قريش ليمنعوا عيرهم. ثم ارتحل إلى بلد يقال لها الدّبّة، ثم نل قريبا من بدر، وهناك خرج الرسول هو وأبوبكر لغرض الاستكشاف، ولقيا شيخا فسألاه عن جيش قريش، فاشترط عليهما أن يخبراه ممن هما، فوافقا، وطلبا منه أن يخبرهما هو أولاً، فأخبرهما بأنه قد بلغه أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن صدق الذي أخبره فهم اليوم بمكان كذا وكذا – للمكان الذي به جيش المسلمين – وإن صدق الذي أخبره بجيش قريش فهم اليوم بمكان كذا – للمكان الذي به جيش قريش. ولما فرغ من كلامه قال: ممن أنتما؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: نحن من ماء، ثم انصرفا عنه، وتركاه يقول: من ماء؟ أمن ماء العراق؟.

وفي مساء ذلك اليوم أرسل عليًّا والزبير وسعداً بن أبي وقاص في نفر من أصحابه لجمع المعلومات عن العدو، فوجدوا على ماء بدر غلامين يستقيان لجيش مكة، فأتوا بهما إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، وأخذوا في استجوابهما، فأفادا أنهما سقاة جيش قريش، فلم يصدقوهما، وكرهوا هذا الجواب، ظنّا منهم أنهما لأبي سفيان، إذ لا يزال الأمل يحدوهم في الحصول على العير، وضربوهما حتى قالا إنهما لأبي سفيان. وعندما فرغ الرسول صلى الله عليه وسلم من صلاته عاتب أصحابه؛ لأنهم يضربونهما إذا صدقا، ويتركونهما إذا كذبا. ثم سألهما الرسول صلى الله عليه وسلم عن مكان الجيش المكي، فقال : هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، وسألهما عن عدد جيش مكة وعدتّه، فلم يستطيعا تحديد ذلك، لكنّهما حدّدا عدد الجزور التي تنحر يومياً بأنها ما بين التسعة والعشرة؛ فاستنتج الرسول صلى الله عليه وسلم بأنهم بين التسعمائة والألف، وذكرا له من بالجيش من أشراف مكة، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها».

2- **الفريقان يقتتلان ببدر**:

لمّا بلغ رسول صلى الله عليه وسلم خروج قريش؛ استشار أصحابه، وقد خشي فريق منهم المواجهة في وقت لم يتوقعوا فيه حربا كبيرة، ولم يستعدوا لها بكامل عدّتهم وعتادهم، فجادلوا الرسول؛ ليقنعوه بوجهة نظرهم، وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿**كما أخرجك ربك من بيتك بالحقّ وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون، يجادلونك في الحقّ بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهو ينظرون، وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحقّ الحقّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين**﴾[الأنفال، 5-7].

وتكلم قادة المهاجرين، وأيّدوا الرأي القائل بالسير لملاقاة العدو، منهم أبوبكر وعمر والمقداد بن عمرو، ومما قاله المقداد: "يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه"؛ وسُرّ النبي صلى الله عليه وسلم من قوله. وبعد سماعه كلام قادة المهاجرين، قال: «أشيروا عليّ أيّها النّاس»، وكان بذلك يريد أن يسمع رأي قادة الأنصار؛ لأنهم غالبية جنده، ولأن نصوص بيعة العقبة الكبرى لم تكن في ظاهرها ملزمة لهم بحماية الرسول صلى الله عليه وسلم خارج المدينة، وأدرك سعد بن معاذ مراد الرسول صلى الله عليه وسلم، فنهض قائلا: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: فقد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول اله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ في الحرب صُدُقٌ في اللّقاء، ولعلّ الله يُريك منا ما تقر به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله؛ فسُرَّ رسول صلى الله عليه وسلم بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا: فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن انظر إلى مصارع القوم».

نزل رسول الله ببدر بالعدوة الدنيا، بأدنى ماء من بدر، يبادر المشركين ويحول بينهم وبين الماء، وهنا أبدى الحباب بن المنذر رأيه قائلاً: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم(قريش) فننزله ونغوّر(نخرّب) ما وراءه من القُلُب(الآبار)، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد أشرت بالرأي». وفعل ما أشار به الحباب بن المنذر. وعندما استقروا في المكان، بُني لرسول الله عريش من جريد، فدخله النبيّ وأبوبكر، وقام سعد بن معاذ على باب العريش متوشّحا بالسيف.

وبعد أن اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم كل الوسائل المادية الممكنة للنصر في حدود الطاقة البشرية، بات ليلته يتضرّع إلى الله تعالى أن ينصره، ومن دعائه كما جاء في رواية عند مسلم: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، وتقول الرواية: فما زال يهتف بربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه؛ فأتاه أبوبكر، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبيّ الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدّكم بألف من الملائكة مردفين**﴾[الأنفال، 9]. وقال لما نزلت: ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر**﴾[ الأنفال، 45]. ولما تنزّلت الملائكة للنصر ورآهم رسول الله حين أغفى إغفاءةً ثم استيقظ، وبشّر بذلك أبا بكر وقال: «أبشر أبا بكر هذا جبريل يقود فرسه على ثنايا النقع» يعني المعركة.

وأنزل الله تعالى في هذه الليلة مطراً طهّر به المؤمنين وثبت به الأرض تحت أقدامهم، وجعله وبالاً شديدًا على المشركين. وفي هذا قال تعالى: ﴿**وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به، ويذهب عنكم رجز الشيطان، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام**﴾، ولكنه –المطر - كان على المشركين وابلا شديدا منعهم من التقدّم. ومن نعمة الله على المسلمين يوم بدر أيضاً، أن غشِيهم النعاس أمنة منه، كما في صدر آية نعمة إنزال المطر، قال تعالى: ﴿**إذ يغشيكم النعاس أمنة منه**﴾[الأنفال، 11]. روى في ذلك الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك أن أبا طلحة، قال: غشينا النّعاس ونحن في مصافّنا(مواضع الصفوف) يوم بدر، فكنت فيمن غشيه النّعاس يومئذ، فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه، ولهذا قال ابن مسعود: النُّعاس في المصافّ من الإيمان، والنُّعاس في الصلاة من النفاق.

وزاد الله المؤمنين فضلاً بأن أوقع الخلاف في صفوف عدوّهم، فقد روى أحمد أن عتبة بن ربيعة أخذ يثني قومه عن القتال محذرا من مغبته؛ لأنه علم أن المسلمين سوف يستميتون، فاتهمه أبو جهل بالخوف، وليريه شجاعته، دعا أخاه وابنه وخرج بينهما داعياً إلى المبارزة. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد رأى عتبة على جمل أحمر، فقال: «إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا». وشاء الله أن يعصوه، وضاع رأيه وسط إثارة أبي جهل الثارات القديمة.

وفي صباح يوم الجمعة 17 رمضان السنة 2هـ طلع المشركون، وتراءى الجمعان، فأخذ النبيّ يقول: «هذه قريش قد أقبلت بِخيلائها وفخرها، تُحادُّك، وتُكذّب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم

الغداة». وعندما وقف المسلمون في صفوف القتال، أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم في تعديل صفوفهم وفي يده قدح، فطعن به "سواد بن غزية" في بطنه؛ لأنه كان متنصلا من الصف، وقال له: استو يا سواد، فقال سواد: يا رسول الله: أوجعتني فأقدني، فكشف عن بطنه، وقال: استقد، فاعتنقه سواد وقبل بطنه، فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله، قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسّ جلدك جلدي، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير.

ثم أخذ في توجيههم في أمر الحرب، قائلا: «إذا أكثبوكم(أي قربوا منكم) فارموهم واستبقوا نبلكم»، ولا تسلّوا السيوف حتى يغشوكم. وحرّضهم على القتال، قائلا: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»، وفي رواية عند مسلم أنه عندما دنا المشركون قال النبي صلى الله عليه وسلم: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»؛ عندما سمع ذلك عمير بن الحُمام الأنصاري، قال : يا رسول الله، جنّة عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم، قال: بخٍ بخٍ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ»، قال: لا، والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها»، فأخرج تمرات من قَرَنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل.

وطلب الرسول صلى الله عليه وسلم من أصحابه، قبل بدء المعركة، ألا يقتلوا نفرا من بني هاشم وغيرهم؛ لأنهم خرجوا مكرهين، وسمىّ منهم أبا البختري بن هشام، الذي كان ممن سعى لنقض صحيفة المقاطعة ولم يؤذ النبيّ صلى الله عليه وسلم، والعباس بن عبد المطلب. وقبل ابتداء القتال خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه، وتصدّى له حمزة، وضربه ضربة أطارت قدمه بنصف ساقه، ثم حبا إلى الحوض مضرجا بدمائه ليبرّ قسمه، واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض.

بعد هذا خرج ثلاثة فرسان من قريش يطلبون المبارزة وهم: عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة والوليد بن عتبة، فخرج لهم ثلاثة من شباب الأنصار وهم عوف ومعوذ ابنا الحارث – وأمهما عفراء – وعبد الله بن رواحة، فلم يقبل فرسان قريش بغير بني أعمامهم من المهاجرين، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم عبيدة بن الحارث وحمزة وعلي أن يبارزوهم. وكان عبيدة لعتبة، وعلي للوليد، وحمزة لشيبة. وقتل علي وحمزة صاحبيهما وأعانا عبيدة على قتل الوليد، واحتملا عبيدة الذي أثخنه عتبة بالجراح. وفي هؤلاء الستة نزل قول الله تعالى: ﴿**هذان خصمان اختصموا في ربّهم**﴾[الحج، 19].

ثم أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصباء، فرماهم بها، وقال: «شاهت الوجوه»، اللهم ارْعب قلوبهم وزلزل أقدامهم، فما بقي أحد من القوم إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فشُغلوا بالتراب في أعينهم، وشُغل المسلمون بقتلهم، فنزلت الآية الكريمة: ﴿**وما رميت إذ ميت ولكن الله رمى**﴾[الأنفال، 17]. ونزل المسلمون ساحة المعركة بقوة إيمانية كبيرة، وشدّوا على المشركين، وأخذوا في اقتطاف رؤوسهم، وأمدّهم الله بالملائكة لينصروهم على عدوهم، كما في قوله تعالى: ﴿**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة**﴾[آل عمران، 123]، وقال تعالى: ﴿**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين**﴾. في هذا الشأن، فقد روى مسلم: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتدّ في إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيْزوم، فنظر إلى المشرك أمامه، فخرّ مستلقيا، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه، وشقّ وجهه كضربة السوط، فاخضرّ ذلك أجمع. فجاء الأنصاري فحدّث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة». وروى أيضا، أن رجلا من الأنصار قصير القامة جاء بالعباس أسيراً، فقال العباس: يا رسول الله، إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجها، على فرس أبلق، ما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله، فقال: اسكت، فقد أيّدك الله تعالى بملك كريم.

ورويت أحاديث في مشاركة الملائكة المسلمين يوم بدر، ورد في الصحيح: جاء جبريل النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: «ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها، قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة». ولقد أكرم الله عباده المؤمنين يوم بدر ببعض الكرامات، فقد روى أن عكّاشة بن محصن قاتل بسيفه يوم بدر حتى انقطع في يده، فأعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم جذلاً من حطب ليقاتل به، فإذا هو في يده سيفاً طويلاً، شديد المتن، أبيض الحديدة، "يُسمى العوْن"، فقاتل به يوم ذاك وفي المعارك الأخرى

التي شهدها بعد ذلك، حتى قتل شهيداً. وروى البيهقي، أن قتادة بن النعمان أصيب في عينه، فسالت حدقته على وجنته، فأرادوا أن يقطعونها، وسألوا رسول الله، فقال: لا، فدعا به فغمز حدقته براحته، فكان لا يدري أيّ عينيه أصيبت، وفي رواية: كانت أحسن عينيه. ورُمي رافع بن مالك بسهم في عينه؛ ففُقئت عينه، فبصق فيها رسول الله ودعا له، فما آذاه منها شيء.

**3- مصرع الطغاة وانتصار المؤمنين:**

شهدت بدر مصرع أغلب الطغاة من صناديد قريش، ومنهم فرعون هذه الأمة أبو جهل، وكان يحيط به أصحابه مثل الحرَجَة(الشجر الملتف)، وهم يقولون: أبو الحكم لا يُخلص إليه؛ ولكن الله أراد غير ذلك، ففي الصحيحين عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: إني لفي الصفّ يوم بدر إذ التفت، فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه: يا عمُّ، أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي، فما تصنع به؟ قال: أُخبرت أنه يسبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك، قال: وغمزني الآخر فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: ألا تريان هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه، قال: فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أيكما قتله؟ فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، قال: هل مسحتما سيفكما؟ فقالا: لا، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السيفين، فقال: كلاكما قتله.

ولما وضعت الحرب أوزارها أمر رسول الله أن يُلتمس أبو جهل، وإن خُفي عليكم في القتلى أنظروا إلى أثر جرح قد أصابه في ركبته، من دفعٍ دفعته في مأدبة ابن جدعان ونحن غلامان، فجُحشت(خدشت) ركبته، لم يزل أثره به. قال ابن مسعود: فوجدته في آخر رمق، فوضعت رجلي على عنقه فقلت: الحمد لله الذي أخزاك، قال: أعار على رجل قتلتموه، لقد ارتقيتَ مُرتقىً صعبا يا رُوَيْعِيَ الغنم، لمن الدائرة، قلت: لله ورسوله، وضربه عبد الله ضربة، فحزّ رأسه، ثم وضعها بين يدي رسول الله، فقال: أبشر يا نبيّ الله بقتل عدو الله أبي جهل، وذكرت له يقول ابن مسعود: ما به من الآثار، فقال: ذلك ضرب الملائكة.

وأما أمية بن خلف، فقد تمكن عبد الرحمن بن عوف من أسره، وعندما رآه بلال معه، قال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، وحاول عبد الرحمن أن يثنيه عن عزمه فلم يستطع، بل استنفر بلال الأنصار فلحقوا به معه وقتلوه، على الرغم من أن ابن عوف ألقى عليه نفسه وأمية بارك. ولقي الزبير بن العوام عبيدة بن سعيد بن العاص يُكنى أبا ذات الكرش، عليه لأْمَة كاملة لا يُرى منه إلا عيناه، فحمل عليه الزبير بحربته(العنزة)، فطعنه في عينه، فمات، فوضع رجله على الحربة، ثم تمطّى، فكان الجهد أن نزعها، وقد انثنى طرفاها. فسأله إياها رسول فأعطاه إياها، فلما قبض رسول الله، أخذها، ثم طلبها أبوبكر، ثم عثمان، ثم عمر، ثم آل علي، فطلبها عبد الله بن الزبير، وكانت عنده حتى قتل.

وقد انجلت معركة بدر عن نصر كبير للمسلمين، ورجعت قريش إلى مكة منهزمين، إذ قتل منهم سبعين، وأُسر سبعين، ولم يقتل من المسلمين سوى أربعة عشر رجلا، ستة من قريش وثمانية من الأنصار. وروي أن نبي الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش، فقذفوا في طوي(بئر) من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، قال: فلما ظهر على أهل بدر أقام ثلاث ليال، حتى إذا كان اليوم الثالث أمر براحلته، فشدت برحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه، حتى قام على شفة الطوي، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسرّكم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟» قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم». وفي الصّفراء ضُرب عنق النّضر بن الحارث، وبعرق الظّبْية ضُرب عنق عقبة بن معيط.

**4- اختلاف المسلمين في الفيء وفي مصير الأسرى:**

وقع خلاف بين المسلمين حول الغنائم؛ لأن حكمها لم يكن قد شرع يومذاك، وقد حكى عبادة بن الصامت ما حدث، قائلا: خرجنا مع رسول الله فشهدت معه بدر، فالتقى الناس، فهزم الله تبارك وتعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم، يهزمون ويقتلون، وأكبّت طائفة على المعسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصيب العدو منه غرة، واشتغلنا وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا

فجعله إلى رسول الله، فنزلت الآية: ﴿**يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم**﴾[الأنفال، 1]، فقسّمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين عن بَوَاء(على السواء). وقد أسهم الرسول صلى الله عليه وسلم لتسعة من الصحابة لم يشهدوا بدرا لأعمال كُلّفوا بها في المدينة أو لأعذار مباحة، منهم عثمان بن عفان؛ لأنه كان يمرض زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان تقسيم الغنائم في منطقة الصفراء في طريق العودة إلى المدينة. ثم أرسل رسول الله عبد الله بن رواحة بشيرا إلى العالية قباء، وزيد بن حارثة إلى أهل السافلة أهل المدينة ليزفّ البشرى، وقد تلقوا النبأ بسرور بالغ مشوب بالحذر من أن لا يكون مؤكداً، قال أسامة بن زيد: فأتانا الخبر، حين سوّينا التراب على رُقيّة ابنة رسول الله التي كانت عند عثمان رضي الله عنه، فوالله ما صدّقت حتى رأينا الأسارى.

وقد استشار الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة في أمر الأسرى، فأشار أبوبكر بأخذ الفدية منهم بحجة أن في ذلك قوة للمسلمين على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام، ورأى عمر قتلهم؛ لأنهم أئمة الكفر، ومال الرسول صلى الله عليه وسلم لرأي أبي بكر؛ فنزل القرآن موافقا لرأي عمر، وهو قوله تعالى: ﴿**ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم**﴾[الأنفال، 67]. وقد تباين فداء الأسرى، فمن كان ذا مال أخذ فداؤه أربعة آلاف درهم، وممن أخذ منه أربعة آلاف درهم أبو عزيز بن عمير، وأخذوا من العباس مائة أوقية عن نفسه وعن ابني أخويه عقيل ونوفل، وعن حليفه عتبة بن عمرو. وقد أطلق الرسول صلى الله عليه وسلم سراح عمرو بن أبي سفيان مقابل أن يطلقوا سراح سعد بن النعمان الذي أسره أبو سفيان وهو يعتمر.

ومن لم يكن لديهم مقدرة على الفداء، وكانوا يعرفون الكتابة، جعل فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة. فقد روى أحمد عن ابن عباس، قال: كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، فجاء غلام يوما يبكي إلى أبيه، فقال: ما شأنك؟ قال: ضربني معلمي، قال: الخبيث! يطلب بذحل بدر(أي بالثأر والعداوة) والله لا تأتيه أبدا. وقد استوصى النبيّ صلى الله عليه وسلم بالأسارى خيراً، فقد حكى أبو عزيز بن عمير وهو بين رهط من آسريه الأنصار، أن آسريه كانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصّوه بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأسرى، حتى ما تقع في يد أحدهم خبزة إلا ناوله إياها، فيستحي فيردّها على أحدهم، فيردّها عليه ما يمسها. وأسلم كثير من هؤلاء الأسرى على فترات مختلفة قبل فتح مكة وبعدها.

وأما حال مكة فهي تبكي قتلاها، وكان أوّل من قَدِم مكة بمصابهم الحَيْسُمان بن عبد الله الخزاعي، الذي جعل يعدّد قتلى أشراف قريش؛ ولمّا تحققوه أهل مكة قطعت النساء شعورهن، وعُقرت خيولٌ كثيرة ورواحل. ورغم المصيبة، لكن قريش تركت النياح على قتلاها؛ وقالوا: لا تفعلوا، يبلغ محمدا وأصحابه فيشمتوا بكم، وكل ذلك من تمام ما عذّب الله به أحياءهم في ذلك الوقت، وهو تركهم النوحَ على قتلاهم، فإن البكاء على الميّت مما بيلُّ فؤاد الحزين. وكان ممّن اشتد عليهم الخبر أبو لهب، الذي لم يعش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعَدَسة فقتلته، وتركه ابناه ثلاثا حتى انتَن. وكذا أبو سفيان بن حرب، كان نذر بعد بدر أنه لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو النبيّ عليه الصلاة والسلام.

ومن أهم نتائج غزوة بدر:

- قويت شوكة المسلمين عندما دوى انتصارهم في بدر في كل نواحي الجزيرة العربية؛ وذلك لأن قريشا كانت لها مكانة رفيعة بين العرب كافة.
- ذهول قريش أمام الصدمة المفاجئة، فصممت على الانتقام من المسلمين، وأخذت تعدّ نفسها ليوم أحد، ولم تنته الحرب بين الطرفين إلا بفتح مكة.
- بدأ النفاق في المدينة يظهر جليا بعد بدر، واستمر المنافقون في أذاهم للمسلمين، وكان كثيرا ما ينزل القرآن يفضح أكاذيبهم.
- بالرغم من المعاهدة التي بين المسلمين واليهود قبل بدر، أخذ اليهود يظهرون عداوتهم للمسلمين بعد بدر حسدا وبغيا وأول من أظهر بغيه بني قينقاع.
- دخل الكثيرون في الإسلام بعد بدر، كما كانت بدر شرفا ومنقبة لمن حضرها من المسلمين والملائكة.